الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٣٤ — ٢٧ يناير سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 134.

Lundi-27-1-1936

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـدد ١٣٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ ذو القعدة سنة ١٣٥٤ — ٢٧ ينـاير سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـدد

ملك وشـــاعر

حل أصدق المواعيد فى يومين متعاقبين بالملك جورج الخامس، وبالشاعر رديارد كبلنج، فارفض لخطبهما الصبر الانجليزى الذى يتماسك بطبعه على مض النوازل، وتجاوبت بأصداء الأسى الوقور أقطار المُلْكِ البريطانى الشامل، وشعر القلب الامبراطورى برجفة صماء لموت الملك، وأحس اللسان الاستعمارى بعقدة بكماء لموت الشاعر؛ ذلك لأن صاحب الجلالة كان يمثل شعبه فى نبله وديمقراطيته، وصاحب العبقرية كان يمثله فى طموحه ووطنيته؛ فأولهما كان رمز السمو الخلقى فى طبع السياسة، وثانيهما كان لحنَ الغرور القومى فى معنى الأدب!

***

كان الملك جورج معنى جديداً من معانى الملكية الجديدة؛ وفق بين غطرفة الملك وتواضع الديمقراطيـة، وألف بين قيود الحكم ونوازع الحرية، وصالح بين حفاظ التقاليد وطبيعة التطور، ولاءم بين إرادة العاهل وسلطة الدستور، وواءم بين سياسة الدولة ورغبة الأمة، واستبدل بالسلطة الزمنية التى أماتها

فيه الزمان ، وورثها عنه البرلمان ، سلطةً روحية أحلته من شعبه محل القَداسة ، ورفعته فى أفقه مكان العَلَم ، وجعلتـه فى حكمه سلامَ الحزبية إذا احتدمت ، وقرار السياسة إذا اضطربت ، وصلة الامبراطورية إذا تقاطعت ، ومواساة المرضى من بَرْح الألم ، وتعزية البؤس[1] من مس الحاجة ؛ ثم تكرم عن أَثرة الملوك وتميّز السادة ، فكان فى الحرب يأكل ما يأكل الناس ، وفى الأزمة ينفق ماينفق الأوساط ، وفى المحنة يكابد مايكابد الشعب ، وفى الرخاء يكاد الاحسان العام لا يترك فى يديه من مخصصاته النصف مليون إلا قرابةَ الألفين

كانت ملكيةُ الملك جورج كما رأيت لفظاً معناه الحب والخير والواجب ؛ ومن هنا وجدت الأحزاب على اختلافها مضامينها فيه ؛ فهى تثور فيما بينها وتسكن إليه ، وتختلف فى رأيها وتتفق عليه ، وتفترق فى طرقها وتلتقى عنده ، حتى قال زعيم من زعماء الأحرار هو مستر اسكويث : « إن العروش لتهاوى حولنا ، لأن بعضها قائم على أساس من الظلم ، وبعضها مرفوع على غثاء من التقاليد ، ولكن عرش هذه البلاد محمول على مشيئة الشعب البريطانى ، فهو مستقر لا يتزعزع ، راسخ لا يميد » ، وحتى قال زعيم من زعماء العمال هو مستر استافورد : « إن الملكية الدستورية ستظل طويلا فى هذه الأمة خير أداة لاختيار رأس الدولة »

من أجل ذلك الخلق الأقوم كان حزن الإنكليز على مليكهم خالصا من الرياء الرسمى ، صادرا عن الشعور الصادق بالحب لرجل غلّب الأبوة على المُلك ، واستغنى بالطيبة عن البراعة ، وسد بكمال الخلق نقص القدرة

***

وكان الشاعر كبلنج مفتونا بعظمة الإمبراطورية ؛ صاغ من نسبها النضارِ شعره ، وألف من لجبها المتناسق أغاريده ؛ ثم شدا بالمجد الطوّاف على أثباج الماء ، وهتف بالنصر الرفاف على وجوه الأرض ، وجعل من شعره الجواب نشيدا قوميا تردده الآفاق البريطانية كما تردد نشيد الملك !

ولد كبلنج فى بلاد قال فيها : « إنها أعجب بلاد خضعت للمخلوق وفُتحت للخالق » : ولد فى الهند ببمباى كما يولد الهنود ، ولكنه وعَى فوجد نفسه سيدا ، ووجد الهندى الذى ولد معه عبدا ، يعيش على كده وهو ناعم بين وِسْكِيهِ وحسانه ، ويرقى على ظهره إذا همّ بركوب حِصانه ! الخلقة هى الخلقة ، والبيئة هى البيئة ، والطبقة هى الطبقة ، ولكن كبلنج رأى بشرته ودمه من لون العلم الخفاق ، ورأى بشرة الهندى ودمه من لون الأرض المستَغَلة ، فأدرك علة الامتياز وسر التفوق : عرف أن البريطانى بحكم الجنس قد يدعى ذكيا وهو قَدْم ، وكيّسا وهو أخرق ، وكافيا وهو عاجز ، وسابقا وهو متخلف ، فاستهام بهذه القوة التى تشع مع الشمس فى كل أفق ، وتنتشر مع الحياة فى كل قطر ، وتنبسط على حواشى البر والبحر أمناً وحماية ، فحبس على إعلان مفاخرها لسانه ، ووقف على تسويغ عدوانها عقله ؛ فموه حجج الاستعمار بالشعر ، وألهب سُعار العصبية بالحماسة ، وشوه جمال الوطنية بالأثرة ، وجعل الأدب وهو شعاع الروح دليلا لبغى القوى ولؤمه ، ومهد لأساطيل الطغيان ، استعباد الانسان للانسان ، بحجة « أن الشرق شرق والغرب غرب فلا يلتقيان » إلا على شر ، ولا يفترقان إلا على ثأر !

من أجل ذلك الاخلاص الملهَم كان مرض كبلنج تحت الرعاية الملكية ، وكانت جنازة كبلنج جنازة « شبه رسمية » !

***

إن فى مثل سياسة الملك جورج لأماناً من طغيان الرءوس وثوران النفوس ، وقيام الدعوات الباطلة ، وشيوع المذاهب الجريئة ، وانقلاب الحكم فى الدولة ، واضطراب السلم فى الأمة ، واغبرار العيش فى أوجه العامة . وإن فى مثل أدب الشاعر كبلنج لروحاً مزهوّة تعتلج بالشعور الوطنى ، وتختلج بالغرور القومى ، وتدفع بالهمم الوانيــة إلى اللحاق ، وتنزع بالنفوس الضارعة عن المذلة ، وتكشف للقلوب المنخوبة عن معانى الرجولة !

إن فى كل حادث ذكرى ؛ وإن فى كل حديث بلاغا !

احمد حسن الزيات

---

(١) البؤس : جمع بائس

٤ – المشكلة

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

صاحبُ هذه المشكلة رجلٌ أعورُ العقل .... يرى عقلُه من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصفُ الوجود فى مشكلته ؛ ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصةً فى إشكالها ، ولوجد فى ناحيتها الأخرى حظًّا لنفسه قد أصابه ، ومذهباً فى السلامة لم يخطئه ؛ وكان فى هذه الناحية عذابُ الجنون لو عذبه الله به ، وكان يصبح أشقى الخلق لو رماه الله فى الجهة التى أنقذه منها ، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثانى

ماذا أنت قائلٌ يا صاحب المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التى بنيتَ بها ، كانت هى التى أُكرهت على الرضى بك ، وحُملت على ذلك من أبيها ، ثم كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صبًّا ، وفيها مُتَدلِّهاً ؛ ثم كانت هى تحب رجلا غيرك ، وتصبو اليه ، وتفتتن به ، وقد احترقت عشقاً له ؛ فاذا جلَوها عليك رأتك البَغيضَ المَقِيت ، ورأتك الدميمَ الكريه ، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل ؛ وتمدُّ لها يدك فتتحاماها تحاميها المجذوم أو الأبرص ، وتكلمها فتُحَمُّ برداً من ثقل كلامك ، وتفتح لها ذراعيك فتحسبهما حبلين من مشنقتين ، وتتحبَّب اليها فاذا أنت أسمجُ خلق الله عندها ، إذ تحاول فى نذالة أن تحل منها محل حبيبها ، وتُقبل عليها بوجهك فتراه من تقذُّرها إياك واشمئزازها منك وجه الذبابة مكبراً بفظاعة وشناعة فى قدر صورة وجه الرجل ليتجاوز حدَّ القبح إلى حدّ الغثاثة ، إلى حد انقلاب النفس من رؤيته ، إلى حد القىء إذا دنا وجهك من وجهها .... ؟ !

ماذا أنت قائلٌ يا صاحب المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك الرجلَ الثانى لا المرأة الثانية ؟ ألست الآن فى رحمة من الله بك ، وفى نعمة كفَّت عنك مصيبة ، وفى موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترتب فى حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك ؟

* * *

تقول : الحب والخيال والفن ، وتذهب فى مذاهبها ؛ غير أن « المشكلة » قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ولا حسبت نفسك منحوس الحظ محروماً ، ولا جهلت أن فى داخل العين من كل ذى فنٍّ عيناً خاصةً بالأحلام كيلا تعمى عينُه عن الحقائق

الحب لفظ وهميٌّ موضوع على أضداد مختلفة : على بركان وروضة ، وعلى سماء وأرض ، وعلى بكاء وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلها هموم ، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحاً ؛ وهو خداعٌ من النفس يضع كل ذكائه فى المحبوب ، ويجعل كل بلاهته فى المحب ، فلا يكون المحبوب عند محبه إلا شخصاً خيالياً ذا صفة واحدة هى الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشرية فى وجود تام الجمال ولا عيب فيه ، والناس من بعده موجودون فى العيوب والمحاسن

وذلك وهم لا تقوم عليه الحياة ولا تصلح به ، فانما تقوم الحياة على الروح العملية التى تضع فى كل شىء معناه الصحيح الثابت . فالحب على هذا شىء غير الزواج ، وبينهما مثل ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يُفهم هذا الحبُّ على النحو الذى يجعله حباً لا غير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابا هو أسخف زواج بينهما إذا تزوجا

وذو الفن لا يفيد من هذا الحب فائدتَه الصحيحةَ إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله فيكون فى حبه عاقلاً بجنون لطيف ... ويترك العاطفة تدخل فى التفكير وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها ؛ ومن ثم يرى مجاهدةَ اللذة فى الحب هى أسمى لذاته الفكرية ، ويعرف بها فى نفسه ضرباً إلهياً من السكينة يوليه القدرةَ على أن يقهر الطبيعةَ الانسانية ويصرّفها ويُبدعَ منها عملَه الفنىَّ المعجب

وهذا الضربُ من السموّ لا يبلغه إلا الفكرُ القويُّ الذى فاز على شهواته وكبَحها وحملها تَغلى فيه غليانَ الماء فى المِرجل ليخرج منها ألطف ما فيها ويحوّلها حركة فى الروح تنشأ منها حياةُ هذه المعانى الفنية ؛ وما أشبه ذا الفن بالشجرة الحية ، إن

لم تضبط ما فى داخلها أصحّ الضبط لم يكن فى ظاهرها إلا أضعف عملها

ومثل هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجته إلى الحبيبة ، وهو فى قوته يجمع بين كرامة هذه وقدسية هذه لأن إحداها توازن الأخرى ، وتمدّ لها فى الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتمسك القلب أن يتبدد فى جوه الخيالى

***

والرجل الكامل المفكر المتخيل إذا كان زوجاً وعشق ، أو كان عاشقاً وتزوج بغير من يهواها استطاع أن يبتدع لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وانه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة ، غير أنه لا يغفل أن هذا هو سرّ من أسرار الابداع فى التمثال إذ تلك هيئة استقرار الأسمى فى سموه ؛ فان الزوجة أمومة على قاعدتها وحياة على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهى معان شاردة لا تستقر وزائلة لا تثبت ، وفنها كله فى أن تبقى حيث هى كما هى ، فجمالها يحيا كل يوم حياة جديدة ما دامت فناً محضاً وما دام سرّ أنوثتها فى حجابه

ومتى تزوج الرجل بمن يحبها انهتك له حجاب أنوثتها فبطل أن يكون فيها سر ، وعادت له غير من كانت ، وعاد لها غير من كان ؛ وهذا التحول فى كل منهما هو زوال كل منهما من خيال صاحبه ؛ فليس بصلح الحب أساساً للسعادة فى الزواج ، بل أخشى به إذا كان وجداً واحتراقاً أن يكون أساساً للشؤم فيه ، إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يمين لها درجة من درجة فى الشغف والصبابة والخيال ، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد ، فان لم يكن الزوج فى هذه الحالة رجلاً تام الرجولة — أفسدت الحياة عليه وعلى زوجته صبيانية روحه فالتمس فى الزوجة ما لم يعد فيها ، فاذا انكشف له فراغها ذهب يلتمسه فى غيرها وكان بلاءً عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ، إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسى ؛ وما المرأة إلا حسها وشعورها (١)

***

فالشأن فى تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وخولتها إن كان الرجل عاشقاً أولم يكنه . وما من رجل قوىّ الرجولة إلا وأساسه ديانته وكرامته ؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع فى مثل هذه المشكلة ثم تظلم به الزوجة أو يحيف عليها أو يفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العشرة ، بله أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصيبة) فيجافيها ويبالغ فى إعناتها ويشفى غيظه باذلالها واحتقارها

وأى ذى دين يأمن على دينه أن يهلك فى بعض ذلك فضلا عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءة ونذالة فى معاملة امرأة هو لا غيره ذنبها ؟ إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكد ويعمل ويصبر على ما يعانيه من ذلك ؛ ومن كان محباً لا يستنزل المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها ؛ وإنما الانسان من أظهر فى كل ذلك ونحو ذلك أثره الانسانى لا أثره الوحشىّ ، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا بقاعدة الفرد . وإنما الدين فى السمو على أهواء النفس ؛ ولا يتسامى امرؤ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناك يتسامى ، ومن هناك يبدو علوه فيما يبلغ إليه ... ...

وإذا حل اللص مشكلته على قاعدته هو فقد حلها ، ولكنه حلّ يجعله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً حتى ليرى الشرع فى نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التى خلقت له فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة فالجنس البشرىّ كله ينزل منزلة الأب فى مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها ما دام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها فى الضمير الانسانى الأكبر وإن خالف ضمير زوجها العدوّ الثائر الذى قطعها من مصادر نفسه ومواردها . أما حكم الحبيبة فى هذا الضمير الانسانى فهو أنها فى هذا الوضع ليست

(١) هذا كله من بعض الحكمة فى أن الاسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد إذ لا يعرف الدين الاسلامى من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما يبنيها ، وتصان بما يصونها ، وقد أشرنا إلى حكمة أخرى فى المقالة الأولى من المشكلة

حبيبة ولكنها شحّاذة رجال ... ...

* * *

لسنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقدة التي في قلبه ؛ بيد أننا نعرف أن ألم العاقل غير ألم المجنون وحزن الحكيم غير حزن الطائش ؛ والقلب الانساني يكاد يكون آلةً مخلوقةً مع الانسان لاصلاح دنياه أو إفسادها ، فالحكيم من عرف كيف يتصرف بهذا القلب في آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيده فيه ، ولا يُخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان . وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي أو أصاب مالا يشتهي استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً يُوجِدُه الغنى عن ذلك المحبوب المعدوم ، أو يوجده الصبر عن هذا الموجود المكروه ، فتتوازن الأحوال في نفسه وتعتدل المعاني على فكره وقلبه . وبهذا الخلق المعنوي يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن [1] وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعاً ترسل اليه المعاني بصورة فيها الفوضى والنقصُ والألم ، لتخرج منه في صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية

يعشق الرجلُ العامي المتزوج ، فاذا الساعة التي أوبقته في المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها ؛ فاما ضَرَب امرأته بالطلاق ، وإما أهلكها باتخاذ الضرة عليها ، وإما عذبها بالخيانة والفجور ، لأن بعض العبث من الطبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عبثُ الطبيعة بهذا الجاهل في غيره ، كأن هذه الطبيعة تطلق مدافعها الضخمة على الانسانية من هذه النفوس الفارغة . . .

وليس أسهل على الذكر من الحيوان أن يحل مشكلة الأنثى حلاً حيوانياً كحل هذا العاميّ ، فهو ظافر بالأنثى أومقتول دونها مادام مطلقاً مخلىّ بينه وبينها . والحقيقة هنا حقيقته هو والكون كله ليس إلا منفعة شهوانية ؛ وأسمى فضائله ألا يعجز عن نيل هذه المنفعة

ثم يعشق الرجل الحكيم المتزوج فاذا لمشكلته وجهٌ آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجود رجل يحل هذه المشكلة برجولة ، فان فيها كرامة الزوجة وواجب الدين وفيها حق المروءة ، وفيها مع ذلك عبثُ الطبيعة وخداعها وهزلها الذي هو أشدُّ الجِد بينها وبين الغريزة . وبهذا كله تنقلب المشكلةُ الى معركة نفسية لا يحسمها إلا الظفر ولا يعين عليها إلا الصبر ، ولا يفلح في سياستها إلا تحملُ آلامها ، فاذا رُزق العاشق صبراً وقوة على الاحتمال فقد هان الباقي ؛ وتيسرت لذةُ الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ، فان في نفس الانسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينة للذة الواحدة ، وموقع أرفع من موقع ، وأثر أبهج من أثر ؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفر بمعانيها ، وأكرمُ منها على نفسه كرامة نفسه . وإذا انتصر الدين والفضيلة والكرامة والعقل والفن ، لم يبق لخيبة الحب كبيرُ معنى ولا عظيم أثر ، ويتوغَّل العاشقُ في حبه وقد لبسته حالة أخرى كما يكظم الرجلُ الحليم على الغيظ ، فذلك يحب ولا يطيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضب . والبطل الشديدُ البأس لا ينبغ إلا من الشدائد القوية ، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة ، والتقيّ الفاضل لا يعرف إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعمري إذا لم يستطع الحكيم أن ينتصر على شهوة من شهوات نفسه أو يُبطل حاجةً من حاجاتها فماذا فيه من الحكمة وماذا فيه من النفس ؟

* * *

وما عقّد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيبته إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوةَ الصالحةَ فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلها ... وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يبصر عندها إلا فُروقاً بين امرأتين : محبوبة ومكروهة ، وبهذا أفسد عينَه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلم كيف يراها لرآها ، ولو تعوَّدها لأحبها

انه من وهمه كالجواد الذي يشعر بالقلادة في عنقه ؛ فشعوره بمعنى الحبل وإن كان معنى ضئيلا عطّل فيه كل معاني قوته ، وإن كانت معانيَ كثيرة . وما أقدرَك أيها الحب على وضع حبال الخيل والبغال والحمير في أعناق الناس . ! .

* * *

وقد بقي أن نذكر توفية للفائدة أنه قد يقع في مثل هذه المشكلة من نقصت رُجُولتُه من الرجال فيدلّس على نفسه بمثل هذا الحب ويبالغ فيه ويتجرَّم على زوجته المسكينة التي ابتليت به ،

(1) استوفينا هذه المعاني في كثير مما كتبنا وبعضها في مقالات (الجمال البائس) ... ...

ويختَـلِقُ لها العلَل الواهية المكذوبة ويبغضها كأنه هو الذى ابتُلى بها وكأن المصيبة من قِبَلها لا من قبله ؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكرة فلم تعد إلا صوراً خيالية لا تعرف إلا الكذب . وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته أشد الكره إذا شعر فى نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها ، فهذا لا يكون رجلا لامرأته إلا فى العداوة والنقمة والكراهية وما كان من باب شفاء الغيظ ، وامرأته معه كالمعاهدة السياسية من طَرَف واحد .... لا قيمة ولا حرمة ؛ وإذا أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه ، ومن جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته ورداً بامرأة على امرأة ......

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

ريح التعصب الجنسى

تهب على أوربا

بقلم باحث دبلوماسى كبير

مضى الآن أربعة أشهر على نشوب تلك الحرب البربرية التى تضرم إيطاليا نارها فى الحبشة باسم الاستعمار والمدنية ؛ والحبشة ترد هجمات المعتدين عليها بشجاعة وجلد يثيران اعجاب العالم وعطفه ؛ والعدو المغير يتخبط فى غمر فادحة من الصعاب والخيبة واليأس ، ويرتد شيئاً فشيئاً عن الأرض التى احتلها فى البداية دون مقاومة ، وظن أن احتلالها مقدمة الظفر الشامل

وقد سنحت لايطاليا المعتدية أكثر من فرصة للفوز بقسط معقول من أسلاب الفريسة ، قبل أن تصطدم بأية مقاومة حقيقية ، وقبل أن ينكشف ضعفها وعجزها عن تحقيق أطماعها الفادحة بالقوة القاهرة ؛ ولكنها لم تحسن انتهاز الفرصة وذهبت بعيداً فى غلوائها وتحديها ، ولم تحسن تقدير المقاومة السلبية الدولية التى استطاعت السياسة البريطانية أن تنظمها ضدها على يد عصبة الأمم ، والتى أملت تنظيمها على السياسة البريطانية بواعث حيوية خطيرة تتعلق بسلامة الامبراطورية وتأييد سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى وادى النيل وشرق أفريقية ؛ بيد أن إيطاليا استطاعت بسياستها المنيفة وما تحمل فى ثنيتها من احتمال اضرام نار حرب أوربية ، أن تحمل السياستين الفرنسية والبريطانية على وضع مشروع للصلح ، يقضى فى الواقع على الحبشة بالاعدام كأمة مستقلة ، ويحقق لايطاليا السيادة الفعلية على معظم أراضيها ، ويتوج حملتها الاستعمارية بظفر شامل لم تستطع أن تنال منه شيئاً بالحرب ؛ ولكن المقاومة الحبشية كانت قد بدأت عندئذ تحدث أثرها فى وقف الزحف الايطالى ، وظهر عجز إيطاليا وضعفها جلياً ، واستقبل العالم مشروع الصلح بالاستنكار والسخط ، ورفضته الحبشة بتاتاً ، فلم يلبث أن قضى عليه فى مهده ؛ وكانت فضيحة دولية حقيقية أصابت هيبة السياسة البريطانية ، واضطرت أن تتراجع أمامها بسرعة وأن تعود إلى موقفها الأول

وقد عرضنا من قبل إلى ذلك التطور المدهش فى سير الحرب الحبشية ، وأشرنا إلى بعض العوامل التى يظن أنها كانت سبباً فى تحول السياسة البريطانية ؛ ومنها ما يقال من أن مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية استطاع أن يقنع السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية المستقيل بأن تعريض الحملة الايطالية للفشل ، وتمكن الأحباش من احراز نصر حاسم على البيض مما يعرض سيادة الدول الأوربية فى أفريقية للخطر ، ويصدع من صرح أوربا الاستعمارى كله ، ويبعث فى الشعوب السوداء أو الملونة رغبة الانتقاض والمقاومة ، وذلك ليس من مصلحة بريطانيا التى تحكم مئات الملايين من الشعوب الملونة فى أفريقية وآسيا

ومما يلاحظ أن هذه النغمة الجنسية تقوى وتشتد فى أوربا يوما عن يوم ، وأن الدوائر والصحف الاستعمارية أخذت تضرب عليها بطريقة منظمة ، وخصوصاً بعد الانتصارات المتوالية التى أحرزها الأحباش على الايطاليين فى الأسابيع الأخيرة ، مما يدل على أنها قد أخذت تحدث أثرها فى تكييف السياسة الاستعمارية الأوربية : بيد أنه مما يلاحظ أيضا أن هذه النغمة التى بعثتها الحرب الحبشية من رقادها ليست سوى ناحية واحدة من نواحى الفورة الجنسية العامة التى اشتدت بوادرها فى أوربا فى الأعوام

الأخيرة ، والتي ظهرت بصورة جلية فى كثير من المناسبات السياسية والدولية

وقد نرجع إلى الوراء قرونا إذا حاولنا أن ندرس كل التطورات التى مرت بها تلك النزعة الجنسية الأوربية ؛ فتاريخ هذه النزعة هو تاريخ الصراع بين الشرق والغرب وبين الاسلام والنصرانية ؛ ولكننا نكتفى بأن نعرض إلى أحدث طور من أطوارها ، وهو الذى نرى اليوم آثاره ماثلة فى سياسة أوربا العامة ، وفى السياسة المحلية لبعض الدول الأوربية . وفى وسعنا أن نقول إن هذا الطور الحديث من هذا الصراع الجنسى يرجع إلى الحرب الروسية اليابانية فى سنة ١٩٠٤ ، فقد كانت الفكرة الجنسية تجثم قوية وراء هذا الصراع بين دولة أوربيـة عظمى وبين دولة أسيوية استطاعت أن تنفض عنها غبار الماضى بسرعة وأن تتبوأ مكانتها بين الدول القوية ؛ ومع أن أوربا كانت تسئ الظن بمقدرة روسيا القيصرية واستعدادها ، فانها لم تكن تتوقع أن تصاب الجيوش والأساطيل الروسية بمثل ما أصيبت به من الهزائم الساحقة ، وأن تحرز اليابان ما أحرزت من نصر باهر

ولكن اليابان خرجت من تلك الحرب ظافرة قوية ، وكان من نتائجها أن بسطت سيادتها على أقاليم شاسعة من الصين ؛ وحدث لأول مرة فى التاريخ أن انتصرت دولة أسيوية على دولة أوربية عظمى ؛ ولهذا استقبلت أوربا انتصار اليابان فى دهشة وروع ، واستقبلته مقروناً بصيحة الخطر الأصفر ؛ ولما سما شأن اليابان بعد الحرب الكبرى وضاعفت جهودها فى سبيل التوسع الاستعمارى فى الصين ، وكشفت عن نيتها فى مقاومة النفوذ الأوربى فى الشرق الأقصى ، مستترة بشعار الجامعة الاسيوية ، واستطاعت فى الأعوام الأخيرة أن تبسط سيادتها تباعا على منشوريا وأقاليم أخرى من الصين ؛ زادت أوربا شعوراً بما تسميه الخطر الاسيوى ، أو الخطر الأصفر إشارة إلى تفوق اليابان أو الجنس الأصفر ؛ وما ينذر به من تحطيم النفوذ الأوربى فى الشرق الأقصى ، والحلول مكان الدول الأوربية فى استعمار الشعوب الاسيوية التى وقعت تحت سيادتها .

وهذه النعرة الجنسية تشتد اليوم فى أوربا وتتخذ صورا محلية الى جانب صورتها العامة . ففى ألمانيا الهتلرية مثلا تتخذ نظريات الجنس والسلالة أهمية خاصة ، وترتب عليها مزاعم مدهشة ، ويبدو أثرها جلياً فى اضطهاد اليهود ومطاردتهم بأساليب عنيفة منظمة ، وفى الدعوة القوية الى بغض الأجناس السامية والشرقية واحتقارها واعتبارها أجناساً منحطة لا يليق أن تتبوأ مكانها مستقلة أو حرة ، ووجوب اخضاعها واستغلالها بواسطة الشعوب الآرية الأوربية ؛ ويزعم هتلر ودعاته أن الجنس الجرمانى هو أشرف أجناس الخليقة ، وأعظمها فى الخواص والخلال ، وينكرون على الشعوب السامية والشرقية بوجه عام أنها ساهمت أو تستطيع أن تساهم فى إنشاء الحضارة ؛ بل يذهبون فى غلوهم إلى اعتبار أن اليابان أمة مقلدة لا يصح أن توضع فى مصاف الشعوب العظيمة المبتكرة ، الى غير ذلك من المزاعم التى تنم عن تعصب جنسى عميق ؛ ونرى مثل هذه الريح الجنسية تعصف بأمم ثانوية مثل بولونيا والمجر ورومانيا ، وتتخذ صورتها فى اضطهاد اليهود ومطاردتهم . أما الصورة العامة التى تتخذها النعرة الجنسية اليوم فى أوربا ، فتظهر جلياً فى أمرين : الأول صيحة الخطر الأصفر ، وذلك لمناسبة توغل اليابان فى الصين وتوجس الدول الأوربية من مطامع اليابان وخوفها من انهيار سيادتها الاستعمارية فى الشرق الأقصى ، وقد أخذت تنهار فعلا بتخلى روسيا عن مصالحها القديمة فى منشوريا ؛ والثانى فى صيحة البيض والسود التى ذاعت لمناسبة الحرب الحبشية الايطالية ، وقصور إيطاليا فى إدراك غاياتها الاستعمارية بعد أن لبثت طويلا تنظم قواها وبعد أن جردت على الحبشة نحو ثلث مليون جندى مجهزين بأحدث الأسلحة والمخترعات المهلكة ؛ وهذه الصيحة تشتد اليوم فى البيئات والدوائر الاستعمارية كلما اشتدت مقاومة الأحباش وزاد عجز إيطاليا وضوحا ، وبدا إزاء مايحرزه الأحباش من انتصارات متوالية أن مغامرة إيطاليا الاستعمارية ستمنى بالفشل الذريع . وهذه النغمة هى التى يضرب عليها اليوم غلاة الاستعماريين الذين يشدون بأزر إيطاليا تحقيقاً لغايات السياسة القومية ، مثل مسيو لافال رئيس الوزارة الفرنسية الذى يحاول أن يستبقى الصداقة الايطالية بأى الأثمان ويخشى أن يؤدى انتصار الأحباش أعنى السود على الايطاليين الى كارثة استعمارية تهز الأمم السوداء والملونة الى الأعماق ، وتنصف بنير الاستعمار الأوربى

فى إفريقية ، ولفرنسا فى افريقيا الشمالية والغربية والوسطى امبراطورية استعمارية ضخمة ؛ ومثل زعماء ألمانيا الهتلرية الذين يرون فى سياسة ايطاليا الاستعمارية ، وفى تحقيق غايات الاستعمار الايطالى سنداً جديداً لمطامع ألمانيا الاستعمارية فى استرداد بعض مستعمراتها القديمة تحقيقاً لنفس الغايات الاقتصادية التى يزعم موسولينى أنه يعمل لتحقيقها بالقضاء على حريات الحبشة واستقلالها

وهذه النعرة الجنسية حرية بأن تحدث أثرها فى السياسة الانكليزية ؛ فانكلترا كفرنسا تسيطر على أمبراطورية شاسعة من الشعوب الملونة ولا سيما فى شرق أفريقية حيث تضطرم الحرب الحبشية ، وسحق إيطاليا فى الحبشة يحدث بلا ريب أثراً عميقاً فى عقلية هذه الشعوب ويذكى فيها روح التمرد والمقاومة للنير الأجنبى ؛ ولكن الظاهر أن انكلترا مع تقديرها لهذا العامل ترى أن تضعه فى المحل الثانى بالنسبة لعوامل جوهرية أخرى تضطرها أن تعمل فى وجهة أخرى . ذلك أن انكلترا ترى فى العسكرية الفاشستية خطراً داهماً على سيادتها فى البحر الأبيض ، وترى فى ظفر إيطاليا باجتياح الحبشة خطراً داهماً على أملاكها فى شرق أفريقية وعلى سيادتها فى وادى النيل ؛ وترى على الجملة فى استمرار هذه الفاشستية الطامحة المتجنية المشبعة بروح الاعتداء والتحدى ، خطراً على سلامة أمبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الأمبراطورية ، وخطراً على السلم الأوربى بوجه عام ؛ والمسألة الحبشية ثانوية فى نظر السياسة الانكليزية كما بينا أكثر من مرة ، ولكنها تغدو فى يد انكلترا وسيلة ناجعة لمحاربة الفاشستية وتقويض دعامتها العسكرية والسياسية

على أن الذى نريد أن نلفت النظر إليه هو أن هذه النعرة الجنسية التى تهب ريحها اليوم على أوربا وتروجها الدوائر الاستعمارية ، ليست جديدة ولا حادثة فى أوربا ، إنما هى نزعة أصيلة فى هذه الشعوب الأوربية التى استطاعت بأساليب العنف والغدر والخديعة أن تفرض سيادتها على معظم الأمم الافريقية والاسيوية ، والتى تحرص كل الحرص على استغلال هذه الأمم واستصفاء ثرواتها لكى تزيد بها فى قوتها وفى نمائها ورخاء بنيها على حساب هذه الأمم المهيضة ؛ وأوربا اليوم هى كما كانت بالأمس ، وكما كانت منذ العصور الوسطى مهد التعصب الجنسى والدينى ؛

وليس من الضرورى أن نعود إلى أيام الحروب الصليبية لكى نصور أوربا المتعصبة على حقيقتها ، وإنما يكفى أن نذكر أن الاستعمار العسكرى والسياسى الذى تفرضه أوربا على الشعوب الشرقية باسم المدنية والتهذيب والتفوق الجنسى والثقافى والاجتماعى ، تؤيده فى نفس الوقت حملات البعثات التبشيرية ، وتمهد له بالعمل على تقويض العقائد الدينية الشرقية ؛ فاذا كنا نسمع فى أوربا اليوم صيحة الخطر الأصفر لمناسبة التقدم اليابانى فى الصين ؛ وصيحة البيض والسود لمناسبة انهيار مشروع إيطاليا الاستعمارى فى الحبشة ، فانما ذلك يتفق تمام الاتفاق مع ماضى أوربا وتقاليدها فى الاضطرام بنزعات التعصب الجنسى والدينى وخصوصاً كلما خشيت على صرحها الاستعمارى من الانهيار ؟

(***)

فى الحب أيضا

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كتبت إلىّ سيدة أعرفها فاضلة لبيبة تسألنى عن الحب كيف أقول فيه ما قلت ؟ وعن المرأة كيف أبسط لسانى فيها كل هذا البسط ؟ وعن الحب الافلاطونى ماذا ترى رأيى فيه ؟ وختمت كتابها باتهام الرجال بقلة الوفاء ، وبالغدر وكثرة التقلب

وقد استخلصت من كتابها أن مقالى الذى تفضلت بنشره « الرسالة » لم يصادف منها ارتياحاً ولم يلق قبولاً . ولست أستغرب هذا ، أو أنكر عليها امتعاضها ، فانى أعرف أن كل رأى فيه من الهوى أثر ؛ والمرء يميل بمزاجه إلى ما هو أحب اليه من الآراء وأكثر موافقة أو مجاراة لهذا المزاج ؛ وما يزال الانسان يوحى إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة لا تتزعزع ولا يسهل زحزحته عنها ؛ ولو أن انساناً استطاع أن يتبين مبلغ أثر الايحاء الذاتى فى آرائه لهاله ذلك ، ولذهب إيمانه بالعقل وقدرته على النظر المجرد ، ولأيقن أنه ما من رأى إلا وهو وليد عاطفة ، فمولد عاطفة ؛ والانسان يعيش بالطبع أكثر مما يعيش بالعقل . وأحسبنى لا أخطىء جداً حين أقول إن عقل كل فرد يصب فى قالب من طباعه ، فليست هذه التى نفكر بها « عقولاً » ، وإنما هى طباع وأمزجة اتخذت صوراً مزورة ؛ وأصل الخطأ أنا سميناها « عقولاً » فصار لها فى وهمنا ، على الأيام ، استقلال لا وجود له

وليس الذى نشرته لى « الرسالة » رأياً فى الحب ، وإنما هو بيان لحالات يجر اليها ، ومواقف يستدعيها ، ولا أرى لى صبراً عليها ؛ أما الحب فليس لغزا ، وما على من يريد فهمه على الوجه الصحيح إلا أن ينضو عنه كل ما خلع عليه الشعراء ولفوه فيه ، حتى أخفوه وحجبوه ؛ وليس هذا كل ما جنى الشعر ، وما هو إلا بعض ما مسخ من حقائق الحياة . والشعراء كالكهان الأقدمين — دأبهم التهويل على الناس وإيهامهم أنهم وحدهم دون خلق الله أهل العلم والاحاطة والبصر والاتصال بالحقائق العليا والأسرار المحجوبة — لا ، بل الشعر ضرب من الكهانة ، ومظهر من مظاهرها — أى نوع من الدجل . ولا نكران أن الشاعر والكاهن يبدآن مخلصين صادقى السريرة — وكذلك كل غرير قبل أن يجرب — ولكن الأمر يتحول شيئاً فشيئاً إلى صناعة ، فلا تصدق من يقول لك إن الشاعر يظل عمره — إلى آخره — طفلا كبيراً ، فان هذا ليس إلا بعض دجل الشعراء -- أو هو بعض ما يوحون إلى نفوسهم ويلحون به عليها ليكونوا أقدر على الدجل ، والدجال يحتاج إلى اكتساب « مظهر » الاخلاص ليستطيع إقناع الناس . وقد رأيت فى زمنى دجالين كثيرين كان أبرز صفاتهم قدرتهم على مغالطة أنفسهم بالايحاء اليها ؛ والشعراء أبرعهم جميعاً لأنهم ألح على نفوسهم ، وأكثر استلهاماً منها ، وسبيباً للتأثير فيها ، ودؤوباً على مناجاتها

أعود إلى هــــذا الحب فأقول إنه ليس فيه سر ، فهو ضرب من الجوع ، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ اليه الطبيعة لتغرينا بما يكفل المحافظة على النوع كما تنبهنا بالجوع ، فتنبهنى ما نحافظ به على ذواتنا . وعلى ذكر الجوع أقول إنى أذكر أنى أيام كنت أقول الشعر نظمت قصيدة نشرت فى الجزء الاول من ديوانى وفيها أن الحب أصاب منى « شبعه » فاستبشعها صديق لى أكبر رأيه وذوقه ، وأنكر علىّ أن أذكر « الشبع » فى معرض كلام على الحب ، فوافقته على رأيه ، ولكنى تركت البيت على حاله ، عجزاً عن تنقيحه ، أو إهمالاً ؛ ولولا أنى أرفض شعرى كله لقلت إنى الآن أرانى أحسنت

فالحب — كالجوع — اشتهاء ، أى إيذان بأن الجسم يطلب أن تسد له حاجة ، وليس الطعام هو الغاية من الأكل ، بل ما يفيده من الصحة والقوة واستمرار الحياة ؛ كذلك ليست المرأة هى الغاية من الحب ، بل ما تعين عليه من بقاء النوع بالانتاج ؛ وكما أن المرء يغلط فيأكل ما لا خير فيه ولا صحة تستفاد منه ولا قوة ، بل ما لعله يضر ويورث المرض ، كذلك يغلط الانسان فيحب ما لا يحقق الغاية التى ترمى اليها الطبيعة . والمرء يكون مترفا فى حبه كما يكون مترفا فى طعامه وملبسه وما الى ذلك ؛ ومن الناس من يأكل طعامه جرفا ، والمبطان الذى لا ينتهى منه ، والمخلّط من صنوفه والمستقصى لها ، والقرور الذى يأكل

لقمتين لقمتين ، والذى يكره معدته على الزيادة بعد الشبع ، والذى يسرع فى الأكل كراهة لطول الجلوس له ، والذى يضع يده على ما أمامه لئلا يتناوله الغير ، والذى يجيل اللقم ولا يمضغها ، والذى يلوك ، والذى يأكل نصف اللقمة ويرد نصفها ، والزهيد القليل الأكل ، والمريض ، والضعيف الاشتهاء ، والمتعجّف . وكذلك أرى الناس يكونون فى حبهم ، بل الانسان الواحد يكون مرة هكذا ، ومرة هكذا ؛ والتوابل وما إليها لازمة للحب أحياناً لزومها للطعام ؛ واللحم هو هو كيفما طبخته ، ولكنه تارة يكون أشهى مشوياً ، وتارة أخرى يكون ألذ وهو مسلوق ، أو مقدد أو مشرح أو معلق فى السفود ، أو مخلوط بالرز أو البيض أو الخضر أو غير ذلك ؛ وقل مثل ذلك فى غير اللحم من الآكال فما أردنا إلا التمثيل ؛ وكذلك المرأة ، فمن كانت يعنيها أن يبقى حب الرجل لها أطول زمن ممكن ، فلتكن على كل لون وعلى كل صورة تُشتهى

ولا احتاج بعد هذا أن أقول : إنى لا أومن لا بالحب الأفلاطونى ولا بالوفاء ، ولست أعنى أنى أستهجنهما أو أعيبهما ، فليس الأمر أمر استهجان أو عيب ، وإنما أعنى أنهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة ؛ وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام فى أطباقه على السفرة ، وأن يحيا المرء بأن يأكل بعينه أو خياله ، فانه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها والتمتع بابتسامتها ورشاقة وقفتها أو حسن جلستها . والذى يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوى منه إلى المرأة .

أما الوفاء فأكرم به وأنعم ! ولكن أين فى دنيانا من يصبر على طعام واحد وفى وسعه ألا يفعل ؟ وأقول « من يسمه ألا يفعل » وأنا أعنى ما أقول ، فما يلتزم الوفاء إلا من يعجز — بسبب ما — عن خلافه . وأسأل القارىء وأعفيه من الجواب العلنى : أى رجل لم ينقض عهدا بالوفاء بالفعل أو بالنية أو بالخاطر أو بالخيال — على حسب الاحوال ؟ والمرأة كالرجل وشأنها كشأنه . وكذاب من يقول — وكذابة من تدعى — غير ذلك . ولست أدعو إلى شىء — وحاشا أن أفعل — ولكنى أصف واقعاً ، وأقرر حقا لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتحل فضلا على حسابى وحساب الحقيقة . والذى يجعل الوفاء مستحيلاً فى الواقع أن الحياة قائمة على التحول لا على الثبات ، والمرء يتغير حتى ليمكن أن يقال إنه يخلق كل يوم خلقاً جديداً مولداً من الخلق السابق أو أنه يموت ويجىء غيره باسمه ؛ وكل يوم يحياه هو يوم ماته ، وبعث بعده كرّة أخرى فى صورة تخالف الأصل من بعض الوجوه . وقد شرحت هذا من قبل فى مقالات شتى فى « البلاغ » « والأهرام » ولا أذكر أين أيضاً ، فلا أعيد هنا ما قلت . . . . . .

وليس هذا رأياً جديداً لى ، فقد نظمت فيه شعراً كثيراً نشر بعضه ، ولن ينشر البعض الآخر ؛ وأذكر مما نشر هذه الأبيات :

أكلما عشت يوما أحسست أنىَ متُّه

(من قصيدة الملل من الحياة)

* * *

إنى أرانى قد حلتُ وانتسخت — مع الصبى سورة من السور
وصرت غيرى فليس يعرفنى — إذا رآنى — صباى ذو الطرر
ولو بدا لى لبت أنكره — كأننى لم أكنه فى عمرى
كأننا اثنان ليس يجمعنا — فى العيش إلا تشبث الذكر
مات الفتى المازنى ثم أتى — من مازن غيرُه على الأثر

(من قصيدة كأس النسيان)

* * *

هذه كفى على خون العهود — لا على الزعم — فهذا لا يكون
إنها دنيا كِذاب وجحود — ولصدق النفس أولى — لو يهون
هذه كفى على وشك الملال — كل نار سوف يعلوها رماد
آهِ لو أسطيع تصديقَ الخيال ! — أو يكون الجهل شيئاً يستفاد

* * *

ياعقيدى طامن الله حشاك ! — لن ترانى شاكيا وهْىَ حبالك
أين من طينتنا — أين — الفكاك؟ — أنت انسان على فرط جمالك

(من قصيدة معاهدة غرامية)

* * *

وحسبى هذا القدر ، وعسى أن يكون كافياً فى جواب السؤال

ابراهيم عبد القادر المازنى

رفعة المرأة

للأستاذ محمد بك كرد علي

تحارب فرنسا فكرة إعطاء الحقوق السياسية للنساء ومساواتهن بالرجال ؛ وقد جعلت ألمانيا وإيطاليا في جملة نظامها الجديدة أن تعود بالمرأة إلى سالف عهدها من التزام البيوت والقيام على تربية الأطفال ومنعهن ما أمكن من معاطاة أعمال الرجال ؛ وتكتب في هذا الشأن كتب ورسائل ، وتنشر صحف ومجلات . ومن الكتب التي ظهرت مؤخراً في فرنسا فأحدثت دوياً في الأوساط المعتدلة وأظهرت المرأة بمظهرها الحقيقي كتاب (رفعة المرأة) للدكتور روبرتوتش Dr. Robert Teutsch : Le féminisme بدأه بكلام لثلاثة من مشاهير الكتاب أحدهم تيودور جوران قال : إن رفعة المرأة بلية صدرت إلينا من البلاد الأجنبية ولاسيما من أمريكا وجرمانيا وبلاد الشمال . وكان هذا النفوذ المتألف من كل غريب يكفي أن يكون منه نتاج قد لا يتلاءم كثيراً مع تركيبنا الفرنسي . وقال روبر كييو : من السهل الدلالة على أن دعوى رفع شأن المرأة كانت أبداً وليدة المذهب الاشتراكي ، فانا نراها نسقط فيها على أفكار اشتراكية بعينها ، وعلى معان لهم وتعبيرات وعلى كلمات مابرح الاشتراكيون يرددونها مع سفسطات كانت ولا تزال مألوفة لهم ؛ وما المرأة إلا أعدى عدو لرفعة شأنها ، فهي موقنة بأنها تخسر من نفوذها الخاص أربعة أضعاف ما تربحه من نفوذها العام ، ولا يتأتى مما ترمي إليه إدخال أدنى إصلاح على النظام الاجتماعي . وقال الثالث مارسل تينابر : إن حقوق النساء وتحررهن الأدبي وطموحهن إلى الحياة السياسية ، كل هذا حسن وجميل ، ولكن ياسيداتي حررن أنفسكن أولاً من الخياط ، فان لم تكن لكن هذه الشجاعة فلا تتطاللن إلى أن تحصلن على ما بقي

قال المؤلف : إن مسألة إعطاء المرأة حقوقها ما زالت منذ ثلاثين سنة من الموضوعات الطريفة ، ولو كان الأمر يقف على إعطاء المرأة جميع حقوقها ولا سيما السياسية التي لم تهيئها لها لاطبيعتها ولا أعملها الخلق لهان الأمر ، ولكنهن يرمين من المطالبة بذلك إلى التفلت من كل قيودهن ولا سيما قيود البيت والأمومة . تريد إنقاص شأن الرجل وتطمح إلى الاستيلاء على كل عمل لم تخلق هي له . تريد الابتعاد عن المنزل وعدم المبالاة بأعماله والاقلال من الأولاد والقضاء على الأسرة وينتهي ذلك بانقراض العنصر والجنس . وبتأثير الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في معظم البلاد الممدنة ولا سيما في فرنسا ، راجت دعاية المفرطين ثم دعاية الرجال والنساء في هذه الحرب الحديثة ، فكان من تلك الدعاية إخراج المرأة عن طورها وحملها على أن تتناسى أو تستنكر عملها ، فصبغت المرأة بصبغة بشعة من محاكاة الرجل ليكون منها شريكة مبغضة له أحياناً ، ومنافسة وخصيمة يخشى بأسها . ومن العدل ألا نغفل عن التصريح بأن أسباب حياة المرأة بعد الحرب الكبرى قد تبدلت تبدلا خاصاً فيه كثير من القسوة ، لأن أجور كثير من الرجال لم تعد كافية لأعاشة البيوت فاضطرت المرأة بكسل الرجل أن تدخل أحياناً لتعمل في البيوت التجارية والمعامل والمصانع لتكتسب ما تستلزمه حاجتها أو حاجة ذويها ، مما لم تحتج إليه فيما سبق من الأيام ، اللهم إلا إذا كان زوجها مصاباً بعلة طال أمرها ، أو بعاهة في جسمه تمنعه العمل ؛ وعلى ذلك كثر عدد العزبات المتجردات ، والمعوزات والأيامى المطلقات ، ممن لا معرفة لهن بصناعة ؛ وكثيراً ما يكون لهن أولاد يضطررن لاعالتهن . وإذا لم ترغب فيهن النفوس أو كن بشمات ممسوخات يمشين خليلات للرجال أو يتدهورن في العهر السافل . ولطالما كان من الفتيات من جمعن شيئاً من المال ، وانتظرن السنين خاطباً أو راغباً ! ومن هذه الطبقة أيضاً عوانس خرجن عن طبائعهن ، وحاولن أن يمشن عيشة جديدة ، ويخرجن من أفقهن الضيق فاستلزم ذلك اختلاطهن بكثيرات من بنات جنسهن وغير أبناء جنسهن ، فتيسر لهن إيجاد علائق كان من أثرها زواجهن ؛ وشق على كثيرات منهن لما أخفقن في الحصول على عروس لهن أن يبقين بلا حب ، فاخترن خليلهن بحسب أذواقهن ، وكل أولئك كان يحسن ويحب لو وقف الأمر عنده ، ولكن هناك نساء سطا عليهن الكبر والحقد ، فاحتقرن الرجل والزواج والولد ، وهن قادرات على أن يكن طاهيات ووصيفات وساعورات ودلاكات ومنظفات أيد (Nanicures) ومنظفات أرجل (Pédicures) وحاسبات وخازنات وكاتبات ومدرسات وبائعات

وسمسارات بل وقصصيات ومحاميات وطبيبات ، ويتوهمن أنهن أسمى من الرجل أو على الأقل مساويات له ، ويحاولن أن يقمن مقامه في معاناة سامي الأعمال مما لسن له خليقات

بهذه الصفحة وصف المؤلف ما تحاول المرأة بلوغه في بلاده ، أو تنزعه من قيودها الطبيعيـة لتتلبس طبائع غير جنسها . وقد قال في وظيفة الحيض : ما برح دعاة تحرير المرأة منادين صاخبين أن المرأة مساوية للرجل ، وما كان تشريح الجنسين ونفسيتهما وطبيعتهما متشابهة قط ؛ وإذا كان الحال كما يدعون ، فلماذا نرى البقرة غير الثور ، والنعجة غير الخروف ، واللبوة غير الأسـد ؟ ولماذا يتناسى دعاة هذا التحرير العمل العظيم الذي يؤثر في طبيعة المرأة وعقليتها وما كتب عليها من الحيض فيخرجها إلى طور غريب ، وتغفل أيام الحيض في خلقها ، وبعض الصحيحات منهن أو المريضات تعاودهن العادة مرتين في الشهر ، فيندفق الدم منهن في الشهر الواحد مرتين ، وينقطع مرتين ، فيتأثر المجموع العصبي فيهن من هـذه الموجات الدموية . وأسهب في شرح هذه الحال على ما يجوزه لسان الطب ، ولا يجوز نقله لسان الأدب الحديث في صحيفة سيارة ، مستشهداً بآراء أعاظم الحكماء والأطباء ؛ ونقل عبارة أحدهم من أن المرأة لا تشعر بالحرارة ولا بالبرودة ، والدليل أنها تتدثر بالفرو في الصيف ؛ وإذا قيل إن ذلك من جملة الأزياء الحديثة ، فإنا نشهدها تتعرى في الشتاء إلى خاصرتيها ، دون أن تحس بما يضرها ؛ فالمرأة ما بردت قط ، وإن أظهرت أنها صردة تتأثر من البرد ، وأنها تضع الفرو عليها فذلك لأن هذه الحركة هي من الحركات الجميلة فيها . وعرض لغرامهن بالأزياء من كشف الأيدي والأرجل والسوق والصدور والظهور على ما تأباه قواعد الحشمة قال : ولو عقلن لسترنها ، لأن في سترها مصلحة لهن على خلاف ما يعتقدن ، وبذلك إغواء الشباب إلى ما يحمل ذلك من الموبقات المخجلة

إن إعطاء الحقوق السياسية لم ينتج منه الاصلاح المدهش في شمالي أوربا وفي أمريكا وأوستراليا ، حيث أخذن يتمتعن بحقوق الناخب والمنتخب ؛ ففي الدانمرك لم يأت النساء بشيء أحسن مما كان للبلاد يوم كان نساؤها يسلمن للرجال الأعمال ، ولم يُقض على الغول (أو الكحول) في بلاد السويد والنرويج وفنلندا وأوستراليا والولايات المتحدة ؛ أما الفحش فكثير جدا في هاتيك الممالك ، وهو مشوب برياء وتصنع

خرج المتعلمات في الجامعات الأمريكية من البيوت الفقيرة ؛ وأظهر الفتيات في فرنسا وغيرها اجتهادا في طلب العلم ؛ وقد يتعلمن بدعة وسرعة كل ما يتطلب اجهاد الذاكرة ؛ وقد يبرزن في المسابقات ، ولسن كذلك عندما يخرجن إلى الحياة ، عندما يضطررن إلى القيام بمسألة تحتاج إلى تفكير وشخصية وحكم ؛ وقل فيهن من ينجحن في المحاماة والطب ، وقل أن يقبل أرباب المصالح على توكيلهن في القضايا أو استشارتهن في الأمراض ؛ ومن تزوج منهن من رجال لهم مثل صنعتهن ، كأن تتزوج الطبيبة بطبيب ، والمحامية بمحام ، لم يحمدن غبّ زواجهن ، لأن التفاوت في قريحتي الزوجين يؤدي إلى أن تحسد الزوجة زوجها على توفيقه في عمله ، فتبغضه وتشنأه ؛ وثلث المتعلمات في أمريكا لا يظفرن بأزواج ، وكلما أحرزن شهادات تخوف الرجل الاقدام على التأهل بهن ، ولذلك يحببن الانطلاق بأفكارهن أن أسفن لما صارت اليه حالتهن ؛ وثبت أن من تزوجن في فرنسا لم يقدمن على الزواج إلا بعد الثلاثين ، وأحياناً في الأربعين ، وكان معدل العقم من هذا الزواج تسعة وثلاثين في المائة لا تنسل فيه صاحبته ولا تلد

فتحت في الحرب معظم الأعمال في فرنسا أمام النسـاء ، فأثبت لهن الاختبار أن من الأعمال ما هو من شأن الرجال كقيادة الترام ، وسوق السيارات ، والمحاماة ، والطب ، فأخذ يرجع بعضهن عن تعاطي هاتين الصناعتين ؛ وأثبت النساء الموظفات في الادارات الحكومية والخصوصية أن امرأة عندما تجلس من وراء كوة أو نافذة للقيام بعملها ، تصبح أشبه بالحيوانات المفترسة ، وكانت خارج عملها من الساحرات الفاتنات بلطفها وظرفها . قالوا إن النساء إذا شاركن في السياسة يدمثن الأخلاق ، ويبطلن الحروب ، ويشرعن تشريعاً انسانياً أكثر من تشريع الرجل ، والواقع خلاف ذلك ، لأن من الموظفات من إذا رضخ لهن بشيء من المال يبسمن ويغيرن معاملتهن ، فما بالك بهن إذا قبضت الواحدة المئات ؟ ومن تولين أعمالاً لا شأن لها كثيراً لم ينجحن النجاح المطلوب ؛ ومن نجحن كن بتراكيبهن الجسمية أشبه بتراكيب الرجال ، من حيث العضلات والقوى . وما نجح النساء في تولي الحكومات لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون كل شيء وينسبون ما عملوا للملكات ،

وإذا رجعنا إلى تراجم الملكات والأميرات نجد كثيرات منهن على جانب من التهتك والخلاعة ، وما تعففن عن غمس أيديهن بالدماء – ويكون ذلك أحياناً لمآرب لهن – أو للتخلص من رجال تمتعن بهن ، ثم أردن اطفاء ذكرهم . وإذا أردنا أن نذكر شهيرات النساء فى الأدب لا نرى غير الرجال يعملون لهن من وراء ستار على الأكثر ، وما تركت فيه المرأة وشأنها من الآثار الأدبية كان إلى التفاهة والفهاهة

وعدد المؤلف المساوىء التى تنتج للمجتمع من إعطاء النساء حق الانتخاب وما يتبع ذلك من شرور تنبعث من الناخبات ، وفسوقهن وفجورهن كثير . وعقد فصلاً طويلاً فى آراء عظماء الرجال منذ القديم فى النساء ورفعة شأنهن ، وفى الأبناء والشباب . قال بركليس : إن خير النساء من لا يتحدث الناس فى أمرها . وقال موليير : إن النساء أتين العالم لعمل الحساء وإنسال الأولاد ، وما عدا ذلك فانهن يظهرن بمظهر مزعج خطر . وقالت مدام دى منتنون : ما عرف النساء قط إلا نصف معرفة ، والقليل الذى يكتب لهن معرفة يصبحن به متعجرفات هزءاات مهذارات بعيدات عن الرصانة والرزانة . وقالت الآنسة دى سكودرى : إن فتاة تنسى النظر إلى السماء لا تحسن شيئاً على الأرض . وقالت مدام دى دوفان : إن النساء يحرصن على الاضطرابات حتى أن معظمهن يؤثرن البؤس على الراحة . وقالت الآنسة دى لسيناس : متى تعلمت المرأة الاملاء يأخذها العُجب ، فالواجب تعليم النساء لا تخريجهن عالمات . وقالت الممثلة دى بوز يولكس : مهما بلغ من خبث الرجل لا يقل فى النساء من المقابح أكثر مما يتصورون بأنفسهن . وقالت مدام دى ستال : لما لم يكن فى النساء تعمق فى نظرهن ولا تسلسل فى أفكارهن ، كان النبوغ متعذراً عليهن وإذا كتب للنساء أن اتسعت أفكارهن فلا يتم لهن ذلك إلا بألم شديد . وقالت إن مجد المرأة حداد ظاهر على سعادتها

وقال برودون : إن المرأة التى تبتعد عن جنسها تسقط الى مستوى أنثى مهذارة وخة كسلانة قذرة خائنة قوادة مسممة ، هى طاعون أسرتها والمجتمع . وقال لوكوفيه : إن المرأة الطبية يتقزز منها ، والمرأة التى تتولى كتابة الصكوك يضحك منها ، والمرأة المحامية يفزع منها . قال : كان أوجست كونت يعرف النساء كثيرا ويغرم بهن كثيرا ، ويخالف فى تحريرهن ، ويعرف أنهن ما عدا القليل منهن جداً لم يخلقن للعمل ولا للحرية ولا لتحمل التبعات

« البقية فى العدد القادم » محمد كرد على

فى مقـــبرة جنوى

حيث تجاور الحياة والموت

للأستاذ فتحى رضوان

الساعة العاشرة فى الصباح . . . .

وجنوى تشملها شمس ايطاليا الهادئة ، ونحن على أبواب مقبرة جنوى

ياعجبى ! لم أسمع من قبل أن أجمل ما فى مدينة مقبرتها ، وأن السياح والراغبين فى التفريج عن النفس ، والجارين وراء لذائذ العقل والفكر ، يهبطون جنوى ، فلا يطلبون حدائقها ، ولا يقصدون متاحفها ، ولا يسألون عن حماماتها أو أسواقها ، بل يستحثون الخطى وغايتهم « المقبرة » ! !

فأى مقبرة هذه التى يهواها الناس ؟ أليست مكاناً اضطجع فيه الناس بعد هذه الرحلة الطويلة التى يقطعونها فى الدنيا ، بحثاً عن المال ، أو هياماً بالجمال ، أو عدواً وراء جاه المنصب . . . ؟ أما تضم الرفات بعد أن ذاب عنها اللحم الوردى ؟ أما تجمع العظام بعد أن تشتتت وانتثرت وانحلت روابطها ؟ أما تفوح منها رائحة الذكريات الحزينة : ذكريات الحبيب الذى ترك وراءه قلباً دامياً وعينا دامعة ، وذكريات الولد الذى خلف الأم الولهى ، وذكريات الزوج الذى من ورائه أرملة ثكلى . . . ؟

أتكون مقبرة جنوى شيئاً يمحو من صدور اليتامى والأيامى والبؤساء والحزانى أحزانهم ويهدئ آلامهم ؟ إن تكن كذلك فهى أعجوبة أحْرِ بالناس أن يقصدوها لا ليفرجوا عن أنفسهم برؤيتها ، بل ليحملوا اليها كل من فارقهم وكان عندهم عزيزا ، ليشعروا ببرد العزاء وحلاوة السلوان

دلفنا نحو المقبرة ؛ ولست أعرف احساسى وقت أن دنونا من بابها ، فقد وقفت بنا السيارة أمام باب ضخم مفتوح على المصاريع ، وإلى جانبه حارس ؛ فلما اقتربت من الباب نظرت إلى الحارس ، وقد حسبت أن طول اقترابه من قبور الموتى جعل له مظهرا خاصا به ، فاذا هو رجل عادى ، يرى كل يوم النعوش الرخيصة تتبعها أسر فقيرة ، والنعوش الغالية الثمينة ، ووراءها الأغنياء الذين يتأنقون فى الموت كما يتأنقون فى الحياة ، والموتُ يهزأ بهم ، وإن كانت الحياة تدللهم !

لقد تعود حارس المقبرة أن يرى أحزان الناس وصور شقائهم ، فبردت أعصابه ، وتفهت مآسى الناس عنده ، إذ رأى المتباكين الذين لا يحسون بألم ، والمفجوعين الذين لا يجدون دمعة يطفئون بها نار صدورهم ...

ولكن يا ترى ماذا يفعل الحارس إذا أصابه القدر فى ابنه أو زوجته أو أمه أو حبيبته ؟ أتبقى أعصابه فى برودتها ، ونفسه فى شدتها ، ودموعه فى محجرها ؟ أم أنه سيفهم آلام الناس من جديد على ضوء النيران المشبوبة فى صدره ، الملتهبة فى قلبه ؟

تركنا حارس المقبرة ، ورأينا فى طريقنا عشرات من الحراس يلبسون على أكتافهم مآزر زُرقا من الصوف ، تقيهم برد الشتاء ، وتكسبهم وجاهة القواد والوجهاء ، وهم يتبخترون فى مشية عسكرية وخيلاء ، وقد جملوا شواربهم ورفعوها ، وحلقوا لحاهم وعطروها ، فما عاد هيناً أن تعرف إذا كان هؤلاء حكاماً جاءوا يتنزهون ، أم هم أشباح موتى ثقلت عليهم رقدة الموت ، فخرجوا يتمشون ويتنفسون . . . إى وربى إنهم أشباح ! فالواحد منهم على جلال مظهره ، وجمال ملبسه ، لا يعدو أن يكون تمثالا ؛ فالأيام تذوب وتدور ، وهم فى مماشى المقبرة واقفون ، يرفعون رءوسهم إلى السماء ، ويخفضونها إلى الأرض ، ويضمون خناصرهم وبناصرهم فى خواصرهم ، لا يشغلهم شاغل ! حسبهم من الحياة أنهم وقفوا على أبواب الموت ، تاركين وراءهم ضجات الناس وصيحاتهم ... بل حسبهم من الحياة أنهم يحملون أثقل أعبائها ، ويرون أصدق حقائقها ، فاذا جاءهم بعد ذلك الموت ، وجدهم كالموتى ، لا أوزار ولا أطماع ، ولا ماض يحاسبون عليه ؛ ثم وجدهم فى المقبرة ، يعرفون لحودها ويحفظون حدودها ، ويدركون مكانهم اللائق بهم فيها

لقد قسوت على حراس المقبرة ! وأحسب أن مظهرهم قد غرنى وخدعنى . . فكم تخفى الوجوه الهادئة نفوساً ثائرة ! وكم يحترق الذين يحسبهم الناس كسالى ونائمين ! ومن يدرى ؟ فلعل أحد هؤلاء الحراس شاب مغامر طاف بالأرض وجازف

بالمال القليل الذى كان بين يديه ، وبالحياة الغالية التى بين جنبيه ، ثم قذف به القدر حارساً لمقبرة ، وهو أبعد الناس عن الموت وفكرته ، مشغولا بالحياة ولذتها . . ولكنه يسير كما يسير بقية الحراس ، مطرقاً متأملاً ، شاخصاً ، متألماً ، وهو مستغرق فى أفكار نفسه وبوده لو يواتيه القدر فينطلق من جديد . . .

لقد طالت وقفتى بحراس المقبرة . . .

هذه هى المقبرة ، وقد لاحت من بعيد شواهد القبور ، فأفلتت منى ضحكة أعرفها من نفسى كلما جاشت فيها خواطر ، واحتدمت ضحكة يحسبها الذين معى أنها استخفاف بالذى أرى أو انصراف عما أرى ، وهى ضحكة النفس التى أسأمتها صور الحياة المتشابهة ، وقد أفرحها أن ترى الحياة والموت متجاورين ، فلا الموت جمل مظهر الحياة عابساً ، ولا الحياة جملت مظهر الموت نافهاً ... ضحكة الذى رأى الحياة وقد حنت على الموتى ، فجملت لهم مساكنهم وزينت لهم حدائقهم ، بل ضحكة الذى سره أن يرى مظاهر الحب الانسانى وقد تجسدت تماثيل وشواهد . . بل وقد تضوعت زهوراً وعطورا . . .

هـذه هى مقبرة جنوى . فأى فرحة شملت نفسى ! وما بالى أرى الدنيا من حولى ضاحكة ؟ هل أستخف أمام الموت بالموت الذى جمع فى هـذا المكان مئات الألوف من الموتى : صبياناً لم يتجاوزوا العقد الأول من أعمارهم ، وفتيات صبايا أرى صورهن على قبورهن فأرى وجوهاً تترقرق بماء الحياة وتفيض بفتنة الأنوثة . . . ورجالاً قصف القدر عمرهم وعلى أكتافهم عبء عمل ناضج ؟ . . .

الشمس فى السماء شمس رحيمة لا تحرق البدن ، ولا تلفح الوجه ؛ تحف بها السحب ، والمكان هادىء لاجلبة وحتى لا بكاء.. وأنا مستغرق فى تأملاتى ، وإخوانى قد سبقونى وأصواتهم تصل إلى من بعيد ! لقد هدأت نفسى ، وذابت فى أعماقها الضحكة التى كنت أسمعها بأذنى صوتاً ، وبراها صحبى بشرا . . . ما بال الدموع قد ملأت عينى ؟ ما بالى لا أرى شيئاً ، ولا أسمع شيئاً ..؟

لقد أفقت على وقع أقدام من بعيـد : أقدام تطرق الأرض طرقاً حاداً ، ولـكنه رفيق . . . عالياً ، ولـكنه موزون . . فما تحركت ولا تركت مكانى ، بل بقيت مسترسلاً فى هـذه الخواطر التى لم أكن أعرف لونها ولا سرها ، لأنها كانت تبدو لتختفى ، وتتعارض وتتقابل ، وتجتمع وتفترق ، وتهدأ وتشتد .. خواطر أشبه بهواجس النائم الذى شغلت ذهنه قبل نومه ألف فكرة ، فتحركت جميعاً حينما أغفى

لعلى لمت نفسى وأنا مطرق على قسوتها على الذين أحبونى وأخلصوا الحب ، فشغلتنى عنهم شواغل الحياة ، فتألموا صامتين ، وودعونى عند السفر باكين ، بل صابرين ... أو لعلى لمت نفسى إذ رسمت لنفسى طريقاً محفوفاً بالصعاب ، فوهنت حيناً ، وأغفيت حيناً ، وجدفت وتشككت أحياناً . . ولعـلى لمت نفسى لأنى أحببت ألوان الجمال جميعاً ، فما تغذيت بلون منها ، ولا شبعت بها جميعاً . . .

لعلى لم ألم نفسى . .

اقتربت الأقدام منى ، فاذا بشبح أسود يمر سريعاً دون أن أراه . . ولـكنى أفيق فأتبين فى الشبح فتاة تلبس الرداء الأسود الحزين وفى يدها طاقة ورد ، وعلى وجهها مسحة ألم ، وهى فى مشيتها لا تلق بالا لما حولها

هذه الفتاة ليست إلا قصة حزن من قصص الحزن التى سجلها الحفار تمثالاً ، والتى سجلها الزمن أجساداً تسير فى الدنيا بلا أرواح ، مشغولة بالذين راحوا ، ولا عودة لهم بعد الرواح . .

تبعتها ، ولم أر بعدُ وجهها ، وقد أحسست أن نصف حزنها قد خف ولطف ، فقد قاسمتها الهم الذى تنوء من تحته ، والألم الذى تشكو من وخزه ، والحرمان الذى تبكى لطوله وعنفه . لقد بدت لى هذه الفتاة فى ثوبها الأسود ، ووشاحها المسدل ، وإطراقتها الطويلة ، الانسانية التى تنبعث آلامها من آمالها ، فقد تـكون هـذه الفتاة قد اقبلت لتضع على قبر حبيبها طاقة زهر ، أو تنثر فوقه دموع عينيها ، وقد كانت بالأمس تمنى نفسها أن تكون له ويكون لها . . .

انطلقت الفتاة وكأنها تعدو ، واخترقت الدهاليز ، واجتازت الابهاء ؛ وبعدت عن صحبى ، ولعلى بعدت عن نفسى ، وخيل إلى أن الفتاة لا تقصد قبرا ، وأن القبور تساوت أمامها فكلها من الحجر الغالى ، وكلها منقوش ومصور ، وكلها أصم أبكم ، بارد جامد لا يلين تحت يد ، ولا يلتهب لوقع قبلات المحزونين المكروبين .

أتقودنى هذه الفتاة إلى مجهول ، أم أن دنيا الأحزان هكذا

متسعة ، والطريق إنها يطول ويطول ... ؟ ولكن الفتاة لم تلبث أن انحرفت إلى دهليز ضيق ، ثم خطت خطوتين ، وركعت أمام قبر من الرخام الأسود ، ورسمت الصليب ، وأغمضت عينيها ... كان النور ضعيفاً ، باهتاً ، وكان المكان ساكنا ساكتا ، فابتعدت عنها خطوتين ووقفت أتأملها ، ولكن الشمس لم تلبث أن خطت في السماء خطوتين ، ثم سقط نورها من نافذة من الزجاج زرقاء ، فرأيت هذه الفتاة تمثالا افتنت فيه يد صانع الطبيعة ، فاجتمع فيه ألف معنى ، فلو سألتني أهذه الفتاة طفلة تتشبث بصدر أمها ، ولم تتجاوز بعد الأعوام الأولى من عمرها ، لقلت « نعم ! » . ثم لو عدت وسألتني : أهذه الفتاة صبية لاهية تائهة في الدنيا ساهية ، لقلت « نعم ! » . ثم لو رجعت إلى السؤال فقلت : أهذه الفتاة شابة اكتملت أنوثتها ، ونضجت فتنتها ، لقلت « نعم ! » ثم لو ألححت في السؤال فقلت : أهذه الفتاة امرأة أثارت الدنيا شهواتها ، ولم تضعف الأيام نزواتها ، لقلت « نعم ! » . ثم لو كان بعد ذلك في مكنتك أن تسأل فقلت : أهذه عجوز شيبت السنون رأسها ، وهدت البأساء نفسها ، لقلت « نعم ! » . لقد أطلت النظر إلى وجهها ، فرأيت الرجاء والتوسل ، والبكاء والتهدم ، والاطمئنان والاستسلام ، والثورة الجائحة ، والشك في رحمة الرحمن ...

لمست القبر وقبلته ، واقتربت منه وعانقته ، وأسلمت رأسها وقد انسدل وشاحها على ظهرها ، وبدا لي أنها شرقى تطلب ماء لغصة في حلقها ، ولكنها رنت إلى السماء بوجهها ، فرأيت أنها تطلب من الله ماء العيون .. فلقد تحجرت عيناها فلا بكاء ولا دموع ... !

انتصبت الفتاة واقفة ، ثم رفعت من فوق القبر قنديلا صغيراً كادت تخبو شمعته إذ أوشك زيته على النفاد ، وملأت القنديل بزيت من زجاجة كانت معها فاشتعل القنديل وتوهج ، ثم ذهبت إلى الناحية الأخرى من القبر وملأت القنديل الموجود هناك ، ثم رفعت طاقة الزهر التي كانت معها فوضعتها على القبر وتمتمت ثم رسمت الصليب وانطلقت وقد زاد وجهها شحوباً ، ووقفت حيث كنت متأملا في نور هذا القنديل ، مشفقاً على هذه الانسانية التي لا تدري كيف تعبر عن حزنها ولا عن ألمها ... ماذا يفعل هذا النور الخافت في هذا الدهليز الضيق ؟ وما الذي يفيده الفقيد الراحل من الزهر المنثور على القبر ومن القنديل ومن تجديد الفتيل ... إنه ذهب ولن يعود ... ولكن الحياة لا تعترف بأنها فقدت من الموتى كل شيء ، فهي تحدثهم بلغة الأنوار والأزهار ، وهي تناجيهم بالتماثيل والتهاويل ، وهي تسمعهم الأغاني والتراتيل ... أهي تفعل ذلك كله من أجل الموتى ؟ أومن أجل نفسها ؟ أهي تتشبث بالذين ذهبوا أم تتعلق بالدنيا التي تتجدد وتتطور وتزداد كل يوم جمالا وافتنانا ؟ ... ما أقوى الحياة في بدايتها ! وما أقواها في نهايتها !

لكن هذه الخواطر الغامضة لا تنتهي ، لأن كل شيء في المقبرة يفجر في النفس ينابيع التأمل والاستذكار ، فلا بد لزائر المقبرة من شيء أو شخص ينتزعه من هواجس نفسه وخواطرها . وقد كان الذي انتزعني دليلا من أدلاء المقبرة ، تقدم إليّ وعلى عينيه مناظر لامعة ، وسألني كم من الوقت أريد أن أقضي في المقبرة . قلت لأصرفه عني : « دقائق قليلة » ؛ فقال حسنا . اتبعني . فتبعته وأنا أسائل نفسي ماذا يستطيع أن يقول هذا الدليل وقد تكلمت التماثيل والأحجار ، ونطقت القبور والأنوار ، وسالت الفجيعة من كل ركن من أركان المقبرة ؟ ولكنه قادني إلى تمثال أنيق لراهب وانطلق يذكر صانع التمثال وشهرته ، وتاريخه وبدائعه ، فأحسست أن الجو الشعري الذي اشتملني قد تبدد أرجه وعطره ، وشعرت أنني خرجت إلى دنيا التوافه ... دنيا الأرقام والاحصاء ، الدنيا التي لا ترى فيها إلا مكافحاً في سبيل الرزق ، أو مدجلا من أجل الشهرة ، أو مغلوباً على أمره ، يبغي البقاء ويخشى أن يدهمه الفناء ...

قل أيها الدليل كل الذي في جعبتك فانك لا تهوى الفن ولا تعشقه ، وليست هذه التماثيل في حسابك إلا بقدر ما تدخل الجثة المسجاة في سرير في حساب « النادبة » التي تؤجج نيران الأسى في قلوب ذوي الفقيد وهي لا تحس ألما ، بل تنتظر لعويلها ثمناً . مرّ بي على تمثال الجندي الشاب الذي صرع في ميدان القتال فأقامت له أمه نصبا خلدت به ابنها ، فأبرز المثال صورته ، وقد أصابته الرصاصة في صدره ، فوضع يده حيث اخترقته القذيفة ووقفت أمه من ورائه تحنو عليه ...

مر بي أيها الدليل على تمثال الفتاة التي زفت الى خطيبها ،

فماتت فى شهر عسلها ؛ وعلى تمثال الغواص الذى هبط إلى أعماق البحر ولم يخرج ...

مر بى أيها الدليل فى الدهاليز ... وأشر بأصبعك إلى القطع البارعة التى احرقت أعصاب أصحاب الفن قبل أن تبرز إلى الوجود . . . لخص أيها الدليل أجمل معانى الدنيا فى عباراتك الباهتة وقل هنا « قبور الأغنياء » ، وهنا قبور القرن الماضى ، وهنا قبور المتوسطين من الناس ... كأنى جئت هنا لأضع الموتى فى مراتبهم الاجتماعية ، ولأسأل عن وظائفهم ومقادير ثرواتهم وما حصلوا من مجد ، وما لاقوا من عنت .... قف أيها الدليل أمام أجمل فتنة فنيـة ؛ ثم لا تدعنى أتأملها لأنك تحسب أنك قلت لى عنها كل شيء إذ تقول إنها تكلفت أموالا كثيرة ..

ولتدخل بى أيها الدليل إلى دهليز طويل ، لأرى فى جدرانه ادراجاً فأحسب أنها أدراج مكتبة وقفها بعض ذوى الثراء على الراغبين فى العلم الباحثين عن المعرفة حتى فى المقبرة ، ثم قل لى إن فى كل درج جثماناً ... وأن الادراج امتلأت بالموتى ولم يبق إلا اثنان ينتظران ميتين ...

إنها لمكتبة حافلة ! ولـكن من يستطيع فك مغاليقها وفض أختامها ؟ واخرج بى أيها الدليـل الى مقبرة الفقراء والمساكين الذين لا يقيمون لموتاهم نصباً ولا تماثيل . ولا تقل لى عدد الموتى ولا أعمارهم ... فانى هنا فى حديقة جميلة غناء ، بودى أن أقف فيها والشمس الهادئة تغمرنى ، والجبل الأشم يطالعنى ، والموتى الساكنون يغسلون بسذاجة قبورهم نفسى . . .

ولـكن قل لى أيها الدليل ما بال هذا القبر يبدو عاطلا من كل حلية . ؟ « نعم ياسيدى لأنه قبر رجل غريب ! »

أيتها الانسانية المسكينة ! تشبثى بالفروق ، وتأنقى فى الموت ، وتأنقى فى الحياة ، وأقيمى لموتى الأغنياء قبابا ، واحفرى لموتى الفقراء لحودا ، ثم انظرى آخر الأمر ماذا بقى لديك فى يديك ؟ الموتى جميعاً أصبحوا (معروضات) فى متحف ، يرتزق بالتحدث عنهم دليل جاهل ، ويتسلى بالنظر إلى صورهم زائر عابر ، ولا تبقى وراءهم إلا عبرة فى عين ، وحسرة فى قلب ، وعبرة لمن أراد أن يعتبر !

(جنوى) فتحى رضوان المحامى

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur والكلب المسعور

وأخذ بستور ورجاله الخلصاء يصوبون مجاهرهم على مواد يستخرجونها من أجسام موتى من الانسان والحيوان . ماتت بأمراض مختلفة الأجناس بلغت العشرات عداً ، وقضوا فى هذا ما بين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٠ . كان بحثهم فى هذه الفترة به شيء من التخليط ، وتحسسهم فيها على غير هدى . ثم شاء القدر أو إرادة الله أن تضع تحت أنف بستور طريقة رائعة للتحصين من الأدواء ، ذلك التحصين الذى حلم به طويلاً . ليس فى استطاعتى أن أؤدى قصة ما جرى فى ذلك بالضبط ، لأن الذين كتبوا عن بستور اختلفت رواياتهم فيها ، ولأن بستور نفسه لم يشر فى كتاباته العلميـة إلى الذى حدث ، ولم يقل قط إن الذى جرى له فى ذلك كان حظاً واتفاقاً . ومع هذا فأنا أقصها على أحسن ما أستطيع ، وأسد خللها على قدر الامكان

ففى عام ١٨٨٠ كان بستور يلهو بتلك المكروبة الصغيرة البالغة الصغر التى تصيب الدجاج فتميته بالداء المعروف بكوليرا الدجاج ، وكان الدكتور بيرُونسيتو Peroncito اكتشفها فوجدها ضئيلة بالغـة فى الضآلة فلا تُرى المكرسكوب منها غير نقطة صغيرة ترتعـد تحت أقوى العدسات ، وكان بستور أول باحث استطاع تربيتها نقية ، وذلك فى حساء صنعه لها من لحم الدجاج ، وبعد أن راقب هذه النقطة الراقصة ، وهى تتكاثر فى هذا الحساء فتبلغ الملايين الـكثيرة فى الساعات القليلة ، قام فأخذ من الحساء قُطيرة فأسقطها على فُتيتة خبز ألقمها دجاجة ، فلم تمض ساعات حتى انقطعت وَقْوقة هذا الطائر النكود ورفض الطعام وانتفش ريشه واستدار فكان كـكرة من الريش . فلما أصبح الصباح جاءه بستور فألفاه يترنح على رجلين ضعيفتين ، وعيناه فى اغتماض من نوم غامض انقلب سريعاً إلى نوم أبدىّ عميق

وقام روRoux وشمبرلاند Chamberland على هذه المكروبات الصغيرة يربيانها ويرعيانها تربية الحاضن ورعايتها . فكانا يغمسان عودا من البلاتين فى حساء يعج بها ، ثم يغمسانه بما حمل من البلل ويحركانه فى حساء جديد خال من الأحياء ، فلا يلبث أن يعج هذا بالخلائف الجديدة من ذلك المكروب . وقاما على هذا يوما من بعد يوم ، ويكثرون من القليل الذى على العود البليل المدد الهائل الكبير من هذه المكروبات ، حتى ازدحمت مناضد المعمل بزريعات متروكة قديمة بلغت أعمار بعضها أسابيع كثيرة ، وتفكر بستور فيها فقال : « غدا ننحّى كل هذا الركام وننظف المناضد »

وهنا جاء الحظ يهمس فى أذن بستور ، فما كان من صاحبنا أن غيّر رأيه ، فقال لرو : « نحن نعرف أن مكروب كوليرا الدجاج لا يزال حيًّا فى هذه القبابة ... نعم إنه قديم ، فقد تركناه فى مكانه بضعة أسابيع ... ولكن برغم هذا أرى أن تحقن قطرات قليلة منه فى بعض الدجاج ... »

وأنفذ رو ماسأله بستور ، وإذا بالدجاجات يجيئها المرض فيذهب عنها المرح والخفة والنشاط ، وتهوّم كأنها تطلب النعاس . وأصبح الصباح فأتى بستور يطلبها فى المعمل لتشريحها وفحصها موقناً أنها لا شك ماتت كالعادة ، فاذا بها تجرى على عينه هنيئة سعيدة . قال بستور : « هذا عجيب ! إن المكروب من زريعاتنا كان قبل الآن يحقن فى العشرين دجاجة فتموت العشرون كلها ، أما هذه .... ! » على أنه لم يكن قُدّر لبستور فى هذا اليوم أن يكشف كشفه الخطير المنظور ؛ فى الغد قام هو وأسرته ورو وشمبرلاند لقضاء عطلة الصيف ، وقبل سفره أودع الدجاجات التى بَرِئت ذمة حارس المعمل ونسى أمرها

وعاد بستور من سفره . وذات يوم طلب إلى خادم المعمل أن يحمل اليه بعض الدجاج الصحيح الجديد ، وأن يجهزه للحقن ، قال الخادم : « ولكن ياسيد بستور لم يبق من دجاجنا الجديد الذى لم يحقن غير زوج أو زوجين ، أما البقية فأنت تذكر أنك حقنتها قبل سفرك بمكروب من زريعات قديمة فمرضت ولكنها لم تمت » . فتسخط بستور على الخدم الذين يهملون فلا يحتفظون بوفرة من الدجاج لتكون دائماً كافية حاضرة ، ثم قال : « إذن فأحضر ما عندك من دجاج جديد ، وزوّدنا كذلك بزوج أو اثنين من الذى حقناه فأبى أن يموت ... »

وأحضرت الدجاجات وهى تملأ الجو صياحا ، فضرب أحد الأعوان محقنه فى عضلات صدورها بملايين المكروب فى صدور تلك التى كانت حقنت من قبل ، وكذلك فى صدور الجديدات ، ومضى النهار ؛ وأصبح صباح الغد ، فأقبل رو وشمبرلاند إلى المعمل ، وبينما هما يدخلان سمعا صوت بستور خافتاً يأتى من تحت السلم من بيت الدجاج وهو يصيح بهما : « رو ! شمبرلاند ! إنزلا إلىّ وأسرعا ! » وكان بستور يسبقهما دائماً إلى المعمل بساعة أو نحوها

ونزلا اليه فوجداه أمام الأقفاص يذرع الأرض بخطواته . فقال لهما : انظرا ! ان الدجاج الجديد الذى حقناه أمس مات . وكان يجب أن يموت . ثم انظرا الى هذا الدجاج القديم الذى كنا حقناه من شهر مضى ، فمرض ثم طاب ، هذا الدجاج أخذ بالأمس نفس الحقنة القاتلة التى أخذها ذلك الدجاج الجديد ، ولكنه لم يمت ... لقد قاوم فعل الحقنة أتمّ مقاومة ، انه فرح مرح ... انه يأكل ! »

فاختبل رو وشمبرلاند ، وانبهم عليهما الأمر حيناً . فقال بستور : « ألا تدركان مغزى هذا ؟ مغزاه أنى وجدت كلّ ما أردت ! لقد وجدت الآن كيف أعطى الداء قليلا الى الحيوان — قليلا بحيث يُمرضه ولا يميته فيُشفى وشيكا .. وكل الذى علينا أن نعمله هو أن ندع هذه المكروبات الحادة القاسية تشيخ فى زجاجاتها . بدل أن نستخرج منها بالزرع أنسالا كل يوم ... ان المكروبات تَقَدُّم فتشيخ فتهدأ حدتها ، وتضعف ثورتها ، فاذا أنت حقنتها فى الحيوان أعطته مرض الكوليرا ، ولكن بعضاً قليلا منه لا كلّه ، فاذا طاب استطاع بعد ذلك أن يصمد لأخبث مكروب فى العالم ... فأنتما تريان أن فرصتنا فى هذا عظيمة ؛ وأن هذا أخطر اكتشافاتى ، هذا اللقاح الذى كشفت، وهو أكثر تأكدا من لقاح Vaccine الجُدرىّ وأكثر منه حظاً من العلم ، فالجدرىّ لم يرَ أحدٌ له جرثومة ... فهيّا بنا نطبق هذا على داء الجمرة ... وعلى كل الأدواء الخبيثة ... ونخلّص حياة الانسان والحيوان ! »

— ٣ —

لقد كان الذى وجده بستور مصادفة واتفاقا ، فلم يكن من تدبير

العقل الانسانى . ومع هذا فلو أن رجلا دون بستور قدرا وقع على الذى وقع عليه لقضى السنين الطويلة يحاول تفسير هذه الظاهرة الخفية لنفسه دون أن يأتى أمرا مذكورا ، أما بستور فما كاد يقع اتفاقا على حماية دجاجتين حقيرتين من جرثومة قتالة حتى رأى فى هذا فرصة سانحة عظمى لحماية بنى الانسان من الموت ، فابتدع عقله الوثاب طريقة جديدة يَختلُ بها الطبيعة التى شاءت أن يستسلم بنو الناس كلما هبت عليهم تلك بالعداء أحياؤها الصغيرة

كان بستور بلغ الثامنة والخمسين من عمره ، فلم يبق فيه من الشباب بقية . ولكن هذا اللقاح الجديد الذى اكتشفه بغير قصد فنجا به الدجاج من الكوليرا ، هذا اللقاح نفخ فى جمرة حياته فاستعرت ، فعاش من بعد ذلك ست سنوات هى أملأ سنواته بالحركة وأشدها احتداماً بالحياة ، سنوات امتلأت بحجاج شنيع ، وانخذال فظيع ، ونصر غير منظور . فى هذه السنوات الست صب بستور من الطاقة ما يصبه مائة رجل ، وأحدث فيها من الحوادث ما يحدثه هذا العدد من الرجال متظاهرين

وقام بستور وصاحباه يؤكدون أمر هذا اللقاح ، فتركوا مكروباً للكوليرا يقدُم فى حسائه وزجاجته ، فلما ضعفت شرته حقنوه فى عشرات من الدجاج الصحيح ، فمرضت سريعاً ، واشتفت سريعاً ؛ وبعد أيام قلائل حقنوها بذريعة خبيثة من المكروب نفسه تكفى لقتل العدد الوفير من الدجاج الصحيح الذى لم يحقن بعد ، وأخذ ثلاثتهم يرقبون هذا الدجاج تياهين معجبين باحتماله تلك الملايين من المكروبات وصموده الغريب لها

هكذا أغرى بستور بذ كائه مكروباً بمكروب . بدأ بتأنيسه ، فلما تم له ذلك حشده وسلطه بأسلوبه الغريب على مكروب من جنسه

ولو أنه لم يكن عندئذ فعل ذلك فى غير مكروب كوليرا الدجاج ، فقد اندفع على عهده فى غطرسته وتعجرفه على الأطباء ، وفى حملته على آرائهم العتيقة ، وهزئ برطانتهم اللاتينية ، وسخر بوصفات جرّت بها أقلامهم على الورق سريعة كالبرق الخاطف ، وانعقدت الجمعية الطبية فقام يخبر الأطباء فى أدب جم أن لقاح الدجاج الذى كشفه يفوق كثيراً لقاح الجدرى الخالد الذى كشفه يينار Ienner قال لهم : « فأنا الآن قد دللت على ما لم يكن بيّنار ليستطيع التدليل عليه ، وذلك أن المكروب الذى يقتل الحيوان هو نفسه الذى يقيه من الموت ! »

وضجر الأطباء ذوو الآراء القديمة والأزرّة الزرقاء ببستور أن نصّب نفسه إماما لينار المظيم . وقام الدكتور جول جيران Jules Guérin يسخر من بستور أن أثار هذه الثائرة كلها من أجل تخبيص فى دجاج — واستمرت الحرب فى استمارها .

وقام بستور فى غضبة ثائرة ، وأعلن على رؤوس الأشهاد رأيه فى سخافة إحدى العمليات الجراحية التى يقوم بها جيران وُيعجب وُيغرم بها . فتلا ذلك منظر من أقبح المناظر وأفضحها يسوؤنى أن أصفه وتضيق نفسى لاضطرارى لذكره . نهض جيران من مقعده ، وكان شيخاً فى الثمانين من عمره ، وأراد أن ينقض على بستور ذى الستين ، وما كاد يفعل حتى صوب إليه لكمة ، ولكن تدخل بينهما الأصحاب فمنعوا اشتباك هذين الشيخين اللذين حسبا أن الحقيقة تظهر باللكم والرفس وبكسر العظام وخمش الوجوه

وفى الغد أرسل جيران العتيق شاهديه إلى بستور يتحداه إلى المبارزة . ولكن يظهر أن بستور لم يشأ أن يخاطر بحياته وأن يموت على هذا النحو ، فأعطى صديقى جيران رسالة يحملانها إلى كاتب الأكاديمية ، وقال فيها : « لم يبق لى الواجب من سبيل أسلكها إلا أن أعرب عن استعدادى إلى تغيير كل ماتلته فيما يرى المحرّرون أنى خرجت به عن حدود النقد المباح والدفاع المعقول عن النفس » . وبذلك هرب بستور من النزال فأثبت مرة أخرى أنه انسان ولو فاته أن يكون ما نسميه فى العادة رجلا

(يتبع) أحمد زكى

الأشباح (١)

Fantômes

لفكتور هوجو

ترجمة السيد فؤاد نور الدين

واحسرتاه ! ما أكثر ما رأيت من غادات هصرتهن يد المنون !

هذه سنة القدر ! الفريسة ينتظرها الهلاك ،

والعشب تنتظره المناجل المشحوذة القاطعة ،

والزهور توطأ تحت أقدام الراقصين الناعمين في الحفلات ،

والماء ينفد من وديانه ، والبرق لا يومض إلا قليلاً ،

وأبريل (٢) الحسود يحرق بصقيعه أشجار التفاح المزهوة ذات الأزاهير الفواحة ، التي تتساقط كأنها ثلج الربيع .

نعم ، هذه سنة الحياة . يعقب الليل الشاحب النهار الضاحك .

وتعقب اليقظة كل شيء ، إما في النعيم وإما في الجحيم .

ويلتف المدعوون الجشعون حول المائدة الكبيرة ،

إلا أن كثيراً منهم يهجرونها قبل نهاية الطعام

— ٢ —

ما أكثر ما رأيت من غادات يمتن ! إحداهن وردية اللون بيضاء البشرة ؛ وأخرى كأنها لم تنصت إلا للألحان السماوية ؛ وأخرى ناحلة قد أسندت جبينها المحني على ذراعها ؛ ثم فارقتها الروح كما يفارق العصفور غصن الدوح وفنن الروض

إحداهن شاحبة ضالة ، استولى عليها الهذيان فما تنطق إلا اسما لا يذكره أحد ، وثانية تغني كما يغني النشيد على الأوتار ، وثالثة كانت تحتفظ بابتسامة الملاك الجميـــل الرحيم ، لما لفظت نفسها الأخير

فما أشبههن جميعاً بالزهور المرتجفة التي أعجلها القدر إلى الموت !

وبالطيور الحائمة التي غمرتها الأمواه مع أعشاشها الطافية !

وبالحمائم الوديعة اللطيفة التي وهبها الله العالم !

فوالهف نفسي عليهن ! طواهن الثرى في غياهبه ، وما قضين بعد من العمر لبانة !

* * *

دعوني أتيه في ظلمات الغاب الدامسة ، وأطأ بأقدامي أوراق الشجر اليابسة ، فأنا لا أصدق أن جميع هؤلاء الفتيات الساحرات قد متن ، وذوت نضرتهن وخمدت أصواتهن ؛ ولا أكاد أصدق أن هذه المشاعل البراقة قد خبت أنوارها ، وتلك الورود الزاهية قد هصرت أعوادها

ما نفسي إلا أخت لهذه الطيوف الجميلة ، أما الحياة والموت فلا يفصلهما فاصل ولا قانون

فأنا طوراً أساعد خطواتهن وطوراً آخذ أجنحتهن فأموت مثلهن أو يعشن مثلي في رؤى عجيبة لا توصف

وتلبس أفكاري أشكالهن وصورهن ويخاطبنني قائلات : تعال !

ثم يتراقصن متشابكات مترابطات حول رموسهن

ويتوارين عن عياني بهوادة ، لا يخلفن لي غير الحلم والذكرى

— ٣ —

إنما أذكر منهن واحدة اسبانية : ملاك غض الصبي ؛ أبيض اليدين . قد رفعت النهدين وعقدتهما زفرات بريئة . العين حوراء تلمع فيها نظرات فتنة وسحر

والجمال مجهول أمره ، هذا الجمال الذي يتوج بهالة من النور والضياء جبين من بلغت الخامس عشر ربيعاً .

لم يقض الحب عليها ، فالحب لم تخطر بعد لذائذه ومماركه في فؤادها العاصي بالرغم من هتاف الناس عنـد مرورها : ما أجملها ! كانت تهوى الرقص وهذا الرقص قضى عليها

فرفاتها لا يزال يرتمش رعشـة الهدوء والسكون كلما رقصت حول كوكب السماء في الليلة الصحية غيمة بيضاء

كانت تعشق الرقص أشد العشق ، وكانت تظل قبل كل حفلة ثلاثة أيام ولياليها تفكر فيه وترى من أجله أحلاماً زاهية ، وترى نسوة وعازفين وراقصين كلهم يحفون بها

وترى الحلى اللامعة ، والعقود الساطعة ، وهـذه النسائج الرقيقة الناعمة ، وتلك النفائس البراقة المتلألئة ، وهذه الشرائط الخفيفة التي تشبه أجنحة النحل اللطيفة : كلها وزهور وورود كانت تملأ في الحلم عينيها وتسحر نفسها

* * *

فاذا كانت الحفلة ، ألفيتها لاهية ضاحكة مع رفيقاتها ، تقبل حيناً وتدبر حيناً في المخامل الحريرية

(١) نقلت عن كتاب Oeuvres choisies illustrées (V. hugo.)

(٢) نيسان

والمروحة بين أصابعها تضغط عليها والألحان المرحة تنتشر من حنجرتها

فتوافقت الموسيقى الصادحة ونغمات البيانة السابحة

لله ما أبهج النفس التي تتمتع برؤية هذه الكاعب ترقص وتزهو !

ثوبها يهتز بنجومه المتلألئة اللازوردية ، وعيناها السوداوان النجلاوان تلمعان تحت خمارها الحريري الرقيق لمعان نجمتين تضيئان على جبين الليل من خلف سحابة مظلمة

كل ما كان يكمن فيها كان رقصاً ضحوكا ومرحاً متوثباً

ما أشبهها بالطفل ! — كنا نبتهج بالنظر إليها في دعتنا الكئيبة ؛ لأن القلب لا يجد متعة في الرقص فحسب ، فالرماد يعلو حول الألبسة الحريرية

والسأم يظهر وسط اللذائذ السماوية

***

أما هي فكان الرقص يبهجها ويثيرها ، وكانت تحلق — وهي نشوى بنفحات القيثارة الفخور — في فضاء من الحبور ، وفي جو من السرور

وكانت الزهور الجميلة ، ومصابيح الذهب المتوهجة ، وجلبة الأصوات المرتفعة ، وضجيج الخطوات المتنقلة ، تستهويها وتلذها

ما أسعدها وهي تثب وسط الجمع ، كأن مشاعرها تضاعفت وازدادت ونمت !

فلا تدري حينذاك أتتدحرج خلال السحب ، أم تصطاد خلال الغاب ، أم تطأ بأقدامها أمواج البحار ؟

***

واحسرتاه ! إذا ما قرب انبثاق الفجر وجبت العودة إلى القصر

وهنا تضطر الراقصة الساذجة إلى الوقوف على عتبة الباب منتظرة المعطف

وهنا تحس وهي ترتجف أن نسيم الصباح الندى يلامس كتفها العاري الفضيّ

فيعقب الغدُ الحزين واليوم الكئيب ليلة الرقص المائجة !

وداعاً أيتها الرقصات الصبيانية ، وداعاً أيتها الزينة !

أيتها الحفلات الجميلة ، أيتها الأغاني العذبة ، واللذائذ الحلوة ، والعيون المشرقة !

فلقد خافتكنّ جميعاً عيونٌ منطفئة ، وأدواء معضلة

— ٤ —

ماتت فتاتنا — وما جاوزت ربيع الخامسة عشرة من عمرها !

ماتت في وفرة شبابها ، وروعة جمالها ، بين نظرات تعبدها ، وعيون تقدسها

ماتت على أثر خروجها من حفلة راقصة ، فتفتتت أكبادنا حسرة عليها ؛ ولبسنا لباس الحداد من أجلها

ماتت وا أسفاه ! بين ذراعي أم ضاع صوابها وغاب رشادها ،

لم يرحمها الموت فانتزعها انتزاعاً بيديه الباردتين لكي يضعها في القبر ، وهي ما تزال في أهبة لحضور حفلات تالية

لله ما أسرع الموت في اختطاف تماثيل الجمال !

أما تلك الزهور التي كانت تزين بالأمس رأسها ، وتتفتح أكمامها على صدرها ، فلقد ذبلت في الرمس ، قبل أن تنشد فتاتنا نشيد الهوى والعرس

— ٥ —

وارحمة لأمها التاعسة ! إنها تجهل حظها العاثر

تلك الأم التي أضمرت لابنتها من الحب والحنان شيئاً عظيما ؛

ألم ترع طفولتها الشاكية الحزينة ؟

ألم تقض لياليها ساهرة تهدهد لها المهد لتغفو وتنام ؟

رحماك رب ! لم يفدها ذلك .

فالفتاة ماتت ، وهي ترقد الآن في تابوتها القاتم شاحبة اللون ، كاسفة الوجه ، فريسة للحشرات والديدان

***

فاذا ما أيقظتها في ليلة جميلة من ليالي الشتاء حفلة خاصة بالموتى ، تقدم إليها — ليتولى أمر زينتها — شبح رهيب ذو ضحكة مروعة

فيقول لها : هلمي حان وقت الرقص !

ويطبع على شفتها البنفسجية قبلة باردة جليدية ، ويمر أصابعه العقداء ، أصابع هيكل عظمي ، على خصلات شعرها الطويلة المتموجة ، ثم يسوقها مرتجفة مهتزة ، إلى الرقص النادب المشؤوم ، إلى تلك الموسيقى الجوبة المتصاعدة في الظلام ، حيث يكون القمر في الأفق القاتم شاحباً عريضاً ، وقوس قزح مصبوغاً

(البقية في أسفل الصفحة التالية)

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٧ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الناحية الايجابية من مذهب نيتشه

السوپرمان

أو الانسان الأعلى

للأستاذ خليل هنداوي

— ١ —

إن أوربا الحاضرة قد انسل إليها الداء، ترى فيها حيث نظرت مظاهر العلة والانحطاط. فكأن نصباً بالغاً حل على الانسان فكبّل قواه وأضوى عزمه. وهو بعد أن قطع سبيله من دودة أرضية إلى قرد، ومن قرد إلى انسان أصبح يجنح في هذه الساعة إلى راحة بعد هذا التطور الذي شقي فيه. لا يحفل إذا كانت الراحة في الوقوف أو في الموت، وهنالك مذاهب كثيرة تتعلق بأطراف ثوبه تغريه بعوامل جميلة وآفاق مطرزة. هذا يعده بالمساواة المطلقة، وهذا يعده بحياة ما أجمل أفقها! المذهب الديموقراطي مذهب منحط في الجماعات، ومذهب ديانة الألم هو مذهب الضعفاء. وأولئك الشكوكيون الناقمون المارقون الذين ألفوا «مثوى» لهم عند زرادشت، هم منحطون يتألمون من وجودهم، ويكادون يختنقون سأماً من أنفسهم واحتقاراً لها كلما وقعت أنظارهم على الانسان الحاضر

أليس هذا هو الانسان المتشائم الآلهي الذي ينطق بمواعظ الموت قائلاً: «كل شيء باطل الأباطيل» «لا شيء يجدي! السعي باطل». «لا جزائر سعيدة وراء المحيط»! . هنالك متشائمون كثيرون أووا إلى كهف زرادشت، منهم الملكان اللذان هجرا مملكتهما لأنهما لم يخلقا أول الرجال، والآن يريدان ألا يأمرا ولا ينهيا أحداً. وهنالك العالم الذي يعكس صور الأشياء، ويضحي بحياته ابتغاء أن يدرس دماغ علقة. وهنالك الساحر المشعوذ الذي يعبث كثيراً بحقائق الأشياء ويخدع كل الناس دون أن تجوز عليه خدعة. ثم يتحرى — وقلبه مفعم سأماً وكآبة — عن مجد مشروع صحيح. وهنالك «البابا الأخير» من لم يستطع أن يجد لنفسه عزاء عن موت الآله. وهنالك أقبح الرجال، قاتل الآله، لأن الآله خنق اشفاقه على بؤس الناس وشقائهم. وهنالك السائل الذي مقت الانسان المتمدن، يتحرى إزاء قطعان البقر السارحة في المروج، يتحرى عن السعادة. وهنالك الشكوكي الذي قذف به جموح عقله إلى إضاعة نفسه، فضل وغوى وانطلق — بدون أمل — يسبح في أرجاء الوجود. كل هؤلاء يئنون من داء عميق يحز في قلوبهم حزاً. فهم يطوفون في الآفاق وقد أخذ القلق منهم كل مأخذ. فالناس وكل ما يؤمن به الناس من السعادة لا يزيدهم إلا سأماً. فهم أمسوا ولا إيمان لهم بكل الرموز التي يقدس الشعب ألفاظها ومعانيها. فلا ما وصلت إليه المادة يغنيهم نفعاً، ولا الايمان بالمثل الأعلى يغمر قلوبهم، فماذا يجب على الانسانية إذاً أمام هذه الهاوية؟ فهل تقف مشيها وتطلب نفي الحياة وتنشد العدمية؟

يجيب نيتشه: لا! لأن الانحطاط لا يؤول إلى العدم، بل

يبريق الياقوت والمسجد، وتكون الغيوم ذوات أهداب من لجين

— ٦ —

يا أيتها الفتيات اللواتي تشوقهن ملاهي الرقص الضاحك!

لا تنسين تلك البنت الاسبانية التي انطفأت شعلتها إلى غير عودة! ولا تنسين أنها كانت تنتقل من حفلة إلى حفلة باشة فرحة، فتقتطف بيد مسحورة، أزاهير العمر العبقة، وتكسب روحها لذائذ الحياة الطاهرة، وتملأ عينيها بزاهي الألوان الساحرة

على أنها مضت إلى عتبات الموت سريعاً، فقضت كما قضت أوفيليا (١) التي جرفها السيل وهي تقطف الورد والزهور، فراحت غريضة الشباب والجمال في ظلمات القبور

حلب — فؤاد نور الدين

معلم الترجمة بمدرسة الزهراء النسائية

---

(١) Ophélie أحد أشخاص المأساة (هملت) وهو أروع شخص ابتكره شكسبير. أوفيليا جنت من اليأس، فأخذت تقطف الزهور على شاطئ النهر فسقطت في الماء ولاقت حتفها. (لاروس)

قد يكون الانحطاط بشائر حياة جديدة وعافية قوية ، وأن مما لا ريب فيه أنه لا يمكن الرجوع بالانسانية إلى الوراء . « يجب الاقدام ، الاقدام إلى الأمام ... تقدموا رويداً رويداً في الانحطاط ، وكما أن أوراق الأشجار تصفر في الخريف وتتناثر على الحضيض ، كذلك الانحطاط قد يكون طليعة سلالة جديدة ، والانسانية تهب باحتضارها حياة سامية ، إن الانسانية تتمخض وتتألم من أوجاع الولادة » ولذلك لم يحمل زرادشت تعاسة الرجال السامين إذ يعتقد بأن الانسان ينبغي له أن يتألم كثيراً ليستطيع الوثوب على القمم العالية . إن شقاء الرجال السامين وسأمهم من الناس ومن أنفسهم ضروريان ، ليصر فاهم إلى المواطن العالية وليزيداهم جرأة واقداماً على الوثوب . وإذا كان هؤلاء الرجال السامون هم بأنفسهم نماذج ناقصة للانسانية فما هم ذلك ؟ يجب أن يكون هنالك انحطاط ونقص حتى يجيء النموذج كاملا من كل وجه .

إن الانسان السامي هو كالاناء ، يتهيأ فيه مستقبل الانسانية ، وفيه تتآلف وتتجاذب وتعمل كل الجذور التي ستظهر يوماً لمعانقة أشعة الشمس ، على أن أكثر من إناء واحد ووعاء واحد بين هذه الأوعية سيتصدع وسيتحطم ! ولكن ما هم ذلك ؟ أإذا ساءت ولادة فرد ما فهل ساءت الانسانية كلها ؟ وإذا ساءت ولادة الانسانية كلها فما هم ذلك ؟ إن الانسان خاضع لهذا التشبيه الذي فرضه نيتشه . « إن الانسان هو حبل ممدود بين الحيوان والسوبرمان ، ليس الانسان بغاية ، إنما الانسان مجاز وممر ، وليفن الانسان في سبيل حياة السوبرمان . يقول زرادشت للشعب الحاشد حوله :

« إني أعلمكم السوبرمان ؛ الانسان يجب أن يفوق الانسان ! ماذا فعلتم لتفوقوا الانسان ؟

كل الكائنات سارت في طريق الابداع إلى ما هو أسمى : وأنتم يا بني الانسان شئتم أن تكونوا من الموجة جزرها لا مدها ، بل آثرتم العودة إلى الانسانية على السمو فوق الانسانية

ماهو القرد في عين الانسان ؟ إنه خزي وعار . وهذا ما يجب أن يكون الانسان في عين السوبرمان : خزي وعار . ها إني أعلمكم السوبرمان :

إنه هو ابن الأرض ، فلتقل إرادتكم ، بلى . ليكن السوبرمان ابن الأرض » !

— ٢ —

من هو السوبرمان ؟ وكيف يستطيع الانسان أن يكونه ؟ يمكننا تحديد السوبرمان بأنه هو الانسان الذي يصرف عن نفسه كل التقاليد الموروثة من مذاهب وشرائع سارية في جسد أوروبا . يصرفها عن نفسه ليعود إلى تقاليد وضعها رجال نبلاء وأسياد خلقوا بأنفسهم هذه القيم ولم يقتبسوها من غير أنفسهم . وليس معنى ذلك أن نعود بالانسان إلى الوراء — إلى عصر الوحشية — وإنما نريد من الانسان أن يبقى محتفظاً بمعارفه وبتجاربه التي شقي فيها أدهاراً طويلة . . . ولكنه يجب عليه أن يحطم مجموعة التقاليد والشرائع التي تعوق سيره وتحول بينه وبين التقدم المنشود

إن الانسان بذهابه من الوجود يفتح الطريق للسوبرمان . وما أشبه هذا الاجتياز بالحركة التي تولد الرجل الزاهد عند « شوبنهاور » . يعتقد المتشائم الكبير بأن الألم قد يقود الانسان إلى الانعتاق من إرادته الشخصية ، ويسير به إلى الانتحار في النهاية . ولكن هذا لا يغني وحده في نقله ، وإنما لا ينبغي له إذا أراد الخلاص أن يقنع بالتنازل عن حياته الخاصة التي يحرزها ، بل أن يتنازل عن الحياة عامة ، وبهذا الثمن يستطيع أن يحس بالهدوء . أما عند نيتشه فان الألم هو الواخز الذي يخز الانسان فيقوده إلى السلام . إن الانسان يتألم من كل شيء ذاتي ، فيدرك السآمة الحادة الفاشية في نفسه ، وهذه السآمة هي التي تسوقه إلى طلب الزهد والتشاؤم . وهذه هي حالة الرجال السامين الذين جمع بينهم « زرادشت » في كهفه . ولكن النبي يعظهم قائلا لهم « إنكم لم تبلغوا في الألم الدرجة التي أريدها . لأنكم مازلتم تتألمون من حالتكم ومما أنتم عليه . إنكم لم تتألموا من حالة الانسان الحاضر ! » فاذا بلغ الانسان هذه الدرجة البالغة من الشقاء والسأم توارى وأباد نفسه تاركا الأرض للسوبرمان . إن التشاؤم الحاد المنيف هو الذي سيولد التفاؤل الظافر

(يتبع) خليل هنداوي

أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا!

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

إن مَن كدّوا يزرعون البقاعا   أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا
ربحَ المالكون للأرض غصباً   ومضى كدُّ الزارعين ضَياعا
يُفقِرُ الدهرُ ألفَ بيتٍ ليغنى   واحداً من أفراده جمّاعا
لا ترى بين أوّليهم ثرياً   كانزاً للأموال أو منّاعا
ومن العدل أن يكون نتاج الـ   أرض بين المستثمرين مشاعا
إن بين الحق المحصحصِ والبا   طل منذ الدهر القديم نزاعا
والالىٰ قد حسبتَهم بَشَراً إن   ظفروا كانوا أذؤباً وضباعا
عرفتكم عيونُ من أبصروكم   لو رفعتم عن الوجوه القناعا
وعسى أن يغير الله ربُّ النـ   اس فى القوم الظالمين الطّباعا
رضى العاملون بالوهد مأوىً   وأبى المالكون إلا اليفاعا
أفريقٌ يفوز بالعيش رغداً   وفريقٌ يكابد الأوجاعا
إنما الدين وهو أكبر هادٍ   لا يراعى الألوانَ والأوضاعا
وكتاب الله العظيم يساوى   بين من كانوا سادة ورعاعا

* * *

ما بكم من جبن ولكنكم لم   تستطيعوا عن الحقوق الدفاعا
مشهد يملأ العيونَ دموعاً   وأحاديث تجرح الأسماعا
إن للباطل الذميم لأشيا   عا وللحق لا ترى أشياعا
يتنزى قلبى الجريح بصدرى   موشِكا أن يحطم الأضلاعا
وإذا الأرض زُلزلت فترقّب   أن تكون الوهاد منها تِلاعا
إنما الأمر الذى يُلزم الأحـ   رارَ بالإثم لا يكون مطاعا
أيها العدل أنت شمسٌ فأرسل   لعيونٍ تبغى الضياء شعاعا
لقد امتاز بالشجاعة ناس   صارعوا الفقرَ يحسبون الصراعا
والذى كان فى الحياة قوياً   كال للمعتدين بالصاع صاعا
وإذا لم ترهف حسامك للذو   د فأرهف إذا استطعتَ اليراعا
أيها المبتغى انتحاراً تأخر   فمن الجبن أن تكون شجاعا
بئس قلباً ما كان بالصادق الودّ   وعقلا ما إن يجيد الخداعا

* * *

وإذا ما أتت صروف الليالى   فهى تأتى بالرغم عنك تباعا
أيها القوم إن أردتم لحاقا   بالالىٰ أبعَدُوا فكونوا سراعا
إننى قد دعوتكم للذى فيـ   ـه لكم خير إن أردتم سماعا
فسلاماً إذا رضيتم سلاما   ووداعاً إذا أبيتم وداعا
لا يرى مشرق السعادة رحباً   غيرُ من كان للعُلا طلّاعا
رُبّ أرضٍ تشكو الصدى وسماء   لا ترى فيها كوكباً لمّاعا

* * *

كبرت جرأتى فجئت بشعر   أنا فيه أخالف الاجماعا
حاسباً أن ما بنيتُ جدار   ليس فى الظن أنه يتداعى

(بغداد)   **جميل صدقى الزهاوى**

الغابة

للاستاذ عبد الرحمن شكرى

قد حكيت الآباد كالبحر والصحـ   ـراء من طول أرضك الشجراء
وحجبت الأفق البعيد عن الطر   ف فأنسيت منتهى الأشياء
فكأن لا مدَى لدوحك يرجى   حين تُدْحَى مطارح الغبراء
ورياح تشدو على ورق الدو   ح بألحانِ شدة أو رخاء
منطق لم يدع لنفس شجوناً   لا يُحاكى صفاتها فى الغناء
ثم تبدو الغصون فى هدأة الريـ   ـح كناىٍ معلق بالهواء
وكأنى أصغى إلى غابر الدهـ   ـر وما كان فيك من أرزاء
وكأن المساء ظلّل دوحاً   يتسامى ولات حين مساء
وكأن الظلام دس كميناً   رابضاً فى آجامك الدكناء
خطرت فى ظلام دوحك أروا   ح وناجت مسامع القدماء
لبث القوم فيك دهراً فناجا   هم سِرارُ الفنون بالايحاء
عُمُداً شيّدوا وسقفاً كبهوٍ   واستمدوا من غابة وسماء
حين شادوا للدين بيْعة إيما   نٍ تبدت كالغابة اللّفّاء
صرتِ ملهى وكنت غيلاً مخوفا   وملاذ اللصوص والطرداء
وارتضيت الأمان من بعد ذعر   لم يزل فى المدينة الشماء
غابة شادها ابن آدم نزلا   دوحها من قصورها الزهراء
ربما عرّشت وضاقت فلا شمـ   ـس لتيها ولا مراح الهواء
ومخوفٍ من الفجاءة فيها   كمخوف فى الغابة القتماء
واحتيال ليُقْتَنصَ الرزقُ والصيـ   ـدُ سواء فى مكرة كسواء

كم وحيد لا يعرف الأنس فيها أصبحت نفسه كقفر خلاء
ضاق ذرعاً بنفسه فغدا بذ شد طباً فى معرض الأحياء
عذبته لواحظ الشمس حتى أخذته لواعج الظلماء
وأفاعٍ فى دورها وقرود ووحوش من ناسها بالعَرَاء
وغريب ومعدم وطريد قد عداه حتى خداع الرجاء
فكأنَّ الاقوام لم يخرجوا منك ولا زال عهدك المتنائى
سُنَّةٌ قد سننتها فى نفوس إنْ دعتها كانت جوابَ النداء

عبد الرحمن شكرى

تحية يا شباب!

للاستاذ ابراهيم ابراهيم على

دعنا نحييكَ يا شبابْ ! تحيةَ المعجَب الفخورْ
ونجمع الأهل والصحاب نطرب فى غمرة الشعور
أنت مجيبٌ ومستجاب وأنت نار بها ونور

دعنا نحييك يا شباب

تحية العاجزِ المدين لآخذى النصر باليمين

تحيةً يا شبابَ مصرا يا فتيةَ النيل يا جنود
وذخرنا أن عدمتِ ذخراً يا مصر فى ذلك الوجود
يا فيضة النيل بعد أخرى تمضى ، ولكنها تعود

دعنا نحييك يا شباب

تحية العُرف للأمين وفاتحى فتحها المبين

تحيةً للدم الصبيبِ إلى الردى . أو إلى الحياه
يجرى هنا من فتًى حبيبِ أو يخضب الوجه من فتاه
فى ساحة الملتقى العصيبِ شاتت من المعتدى يداه !!

دعنا نحييك يا شباب

يا ضاربَ الشك باليقين وقاطعاً ذلك الوتين

وفادياً مصر بالغوالى وبالأمانىِّ ، والرجاء
وخائض النار والعوالى لتستوى مصر فى العلاء
لا بغيةَ الجاه ، أو لمال لكنها نفحة السماء

دعنا نحييك يا شباب

يا فاتح الصدر للمنون وباذلاً كل ما يكون

المجد ! يا غبطةَ الضمير والمجدُ لله والبلاد
وشعلةَ الروح فى الصدور ورفعةَ الرأس بالجهاد
ونشوةَ المدمع الغزير وغرةَ الحق والجلاد

دعنا نحييك يا شباب

قولوا هنا : مصرُ لا تلينى فلعنة الذل أن نلين

تحيةً ! صخرة الأساسِ مصر على الرأس واليدين !!
تجهل ما الحكم والكراسى وتذكر الدين أىَّ دَيْن
وتبتغى شدة الراس فما سبيل الهوى بِهَيْن

دعنا نحييك يا شباب

تحية الليث للعرين لا يُظلَم القلب أو يرين

نحب مصراً ومن عليها وإنما مصر فى بنيها
صعيدَها قبل شاطئيها قبطيَّها قبل مسلميها
ومن أعزُّ الورى لديها إلا الشباب الأعزُّ فيها

دعنا نحييك يا شباب

ابن بلادى هو ابن دينى وإنما بالهوى أدين

جهدُك يا جندُ لا يمارى مجدك يا جندُ لا يرام
خصمك يا جند لا يجارى فى سطوة الحرب والسلام
لكنها مصر ! من أغارا على حمى مصر لن ينام

دعنا نحييك يا شباب

اللهُ . فى ركنها الركين وحصنها الراسخ المكين

الحق والنصر صاحبانِ وما من الحق أن نذلاَّ
وليس فى الحق من توان ولا على الحق أن نضلاَّ
ان لم أصنْ مصر عن هوان وأبذلِ الأعظمَ الأجلاَّ

نعم وحاشاك يا شباب

خسئتُ من كاذبٍ مهينٍ أعرف ما الكاذب المهين

أجل ، وحاشاك يا شباب يا نجدةَ الحق يا نصير
حييتمو أيها الصحاب جهادكم ههنا كبير
(القوم) دعواهمو اغتصاب وأمرهم فى الهوى غرور

أجلْ ! وحاشاكَ يا شباب

فاضرب به فى سره الدفين فكم له ثَمَّ من كمين

القصص

نقل من فرجيل ولمعة من يوريبيدز

٢٢ ـ حُروب طَرْوَادَة

١ — الحصان الخشبي
٢ — سينون
٣ — مصير لاوكون
٤ — رؤيا إيناس
٥ — نهاية بريام
٦ — أنخيسيز
٧ — العاصفة

سقوط إليوم (١)

للأستاذ دريني خشبه

لم يبرح فيلوكتيتس يرسل سهامه على الطرواديين ، ولم تبرح المنايا تتخطفهم ... ولكن المدينة ذات الكبرياء ما برحت أمنع من عقاب الجو على الغزاة الجبارين ...

وذهب كالخاس عراف الحملة ، إلى آلهته يستوحيها ، ثم هرع إلى سادته قادة الجيش فذكر لهم أنه مادام تمثال مينرفا القدس ـ البالاديوم المشهور ـ في طروادة فلن يفتحها على أهلها فاتح ، ولو عاونته الأرباب جميعاً !

وانطلق أوليسيز ، وانطلق معه ديوميديز ، فتنكرا واحتالا على حارس البوابة الاسكائية الكبرى ففتحها لهما ، وذهبا قدما إلى هيكل مينرفا ، وسرقا البالاديوم المقدس ، وعادا به ، وكل همهما أن تبطل نبوءات الم كالخاس التي أخذت تترى ، ويأخذ بعضها برقاب بعض . . . . وكرت الأيام . . . . ومع ذلك لم تفتح طروادة ! ؟

ثم بدا لأوليسيز أن يصطنع الحيلة ...

فعرض على زعماء الحملة أن يُدعى مهرة النجارين والمثالين فيصنعوا حصاناً هُولةً كبير الحجم ... خاوي الجسم ، فيكون بداخله جمهرة من أقوى شجعان الميلانيين وأبسلهم ، ثم يوهم الأسطول أنه أبحر بجنود الحملة ، فاذا مضى شطر من الليل ، وأقبل الطرواديون على الحصان فأدخلوه مدينتهم تذكارا لهذه الحرب الضروس التي أكلت أخضرهم ، وأحرقت يابسهم ، وذهبت بالزهرة اليانعة من شبابهم ... ثم إذا كان الهزيع الأخير من الليل ... خرج الأبطال المختبئون ففتحوا أبواب إليوم ، وينقض الجيش المرابط ، فيحتل المدينة العاتية التي رغمت تحت أسوارها أنوف ، وذلت جباه ، وذابت أنفس ، وذهبت أرواح ، دون أن ينال منها أحد . . . .

وطرب القادة لهذه الحيلة التي بدههم بها أوليسيز . . . . . وانصرفوا عن القتال وهم له كارهون ... وانصرف الطرواديون فاعتصموا بأسوارهم ، ورابطوا داخل صياصيهم ، ومهرة النجارين

(١) اعتمدنا في تلخيص هذا الفصل على ملحمة ڤرچيل الخالد ترجمة The Aeneid فيرفا كس تايلر (طبعة دانت) — ورجعنا كذلك إلى درامة يوريبيدز للمتمة (The Trojan Women) ترجمة جلبرت موري النثرية وترجمة ر — پوتر الشعرية مع ما بين الملحمة والدرامة من فروق محتفظين بروح الأسطورة

كن واحداً يا شباب مصرا وادع إلى وحدة اللواء
ولا تكن للذئاب صخراً ولا تكن سلماً لشاء
يا جند في مصر : لن تفرّا حتى يقروك في السماء
دعنا نحييكَ يا شباب
في صرخة الدهش والسكون أو لا ! فمن ذا إذن نكون

يا باذلَ المهجةِ احتساباً والرأسَ . والعينَ . والشبابا
وحامياً ذلك الجنابا
وفاعلا ههنا العجابا
دعنا نحييك يا شباب

ابراهيم ابراهيم على
المحامى

وكبار القالين دائبون على حصانهم المولة حتى فرغوا منه ..
وأقلع الأسطول ...
وانكشفت الساحة من هذا الجراد المنتشر الذى لبث ينوء فوقها عشر سنين ...
واختبأ أوليسيز داخل الحصان ومعه نخبة من شياطين الميرميدون ، وعلى رأسهم پيروس النجيب ، ابن أخيل الخالد ، وعصبة قوية من فرسان الأغريق البواسل ...
ودق الطرواديون البشائر ...
وجاءوا يُهرعون إلى الساحة ، ويتكبكبون حول الحصان المولة ، ويكلمون سينون الذى تركه الميلانيون عند الحصان ليخدع الطرواديين ولينصح لهم بنقله إلى المدينة ليكون آخر الدهر تذكارا لهذه الحرب التى شنها قومه على طروادة ظلماً ، فباءوا منها بالبوار ...
« ... ... هؤلاء الميلانيون الأوشاء ، الذين انصبت عليهم أحقاد الآلهة ، وثار بهم كبير الأولمب وسيده الأعظم ، وسلطت عليهم الزوابع والأنواء حتى كادت تفنيهم ، لولا أن أمروا بتضحية قربان بشرى ينجيهم من غضب السماء ... ولكن ؟ ... من منهم أصاخ إلى الأمر المقدس ؟ ومن منهم سمع إلى هتاف الأولمب ؟ لقد جبنوا جميعاً ! ولم يشأ واحد منهم أن يضحى بنفسه لينقذ الجميع ، حتى أوليسيز ! أوليسيز نفسه ؟ هذا الداهية المنفل ! لقد جبن هو أيضاً ! وفى الوقت نفسه حاول أن يرغمنى أنا ! أنا سينون المسكين ، على أن أقبل التضحية ، وأن أهب دمى للآلهة لتهدأ ثورتها ...
ولكنى رفضت فى شمم ، وامتنعت فى إباء ... لا خوفاً من الذبح ؛ ولكن ضناً بدمى النقى الطاهر عن أن يهرق فى سبيل هؤلاء الجبناء ... الذين تكأكأوا وفزعت نفوسهم من صيحة السماء ... !
وهربت يا مولاى ! يا مولاى بريام العظيم ... ولذت بظلال طروادة الخالدة ، طروادة المنيفة القوية ، وجعلت أصلى لأربابى حتى استجابت لى ، وأرسلت اليهم من أنذرهم بسوء المنقلب إذا هم لم يقلبوا هذا السماء ... ! قاتلهم الله السند ! وقاتلهم الآلهة جميعاً ! ! ...
والآن ! ... ها هم أولاء قد تركوا هذا التمثال الرائع الذى أعدوه ليوم نصرهم ، فجعلته الآلهة آية فشلهم ! ... انقلوه يا مولاى إلى المدينة ، واجعلوه تذكار هذه النوبة الجنونية التى شنوها عليكم ، فحاق بهم سوء ما كانوا يمكرون ... ألا فليكن قربة لميزفا ... !
ولقد سمعت هاتفاً فى صلاتى يقول : « ... الويل لمن يصيب هذا التمثال بشر ! تنقض عليه رجوم السماء ، وتنخسف من تحته الأرض ، وتميد من فوقه الجبال ! ... وطوبى لمن احتفظ إلى الأبد به ! ... إذن يحميه شر حدثان الزمان وعوادى الأيام ... »
وكان سينون يمزج كلماته بدموع الصلاح والورع ، ويشمل فيها جمرات الاخلاص والصدق ... وكان يرسل آهاته من الأعماق ... ! حتى استطاع أن ينفذ إلى سويداء الملك ، ويستولى على مشاعر الطرواديين ؛ وحتى ثار الطرواديون أنفسهم على قديسهم الوقور لاوكون ، راهب نپتيون الأكبر حين نصح ألا تجوز عليهم هذه الكلمات المسولة ، والنفثات السحرية التى يتلجلج بها لسان سينون ، وأن يدعوا الحصان مكانه « فانه إن دخل طروادة جلب عليها الشر وكان فأل السوء للضحايا والشهداء ... ولا تصدقوا أن الميلانيين قد تركوا هذا الحصان تكرمةً لنپتيون كما يدعى هذا الأفاق المأفون ، بل هم قد صنعوه حيلة منهم لغرض سيء ... وها هى ذى ابنتك أيها الملك ... كاسندرا العزيزة فاسألها ... فان لديها سر السماء ... »
وسأل الملك كاسندرا فأفتت بما أفتى به لاوكون ...
ولكن ... من يصدق كاسندرا وما تزال نقمة أپوللو تنصب فوق رأسها ... وقد جعلها إله الشمس عرضة لكل مستهزئ وضحكة كل ساخر لعاب !
وزاد الناس استهزاء بالقديس لاوكون ، حين رأوا اليه تفترسه حيتان عظيمتان على رسيف الهلسپنت إذ هو يقدم قربانه لربه نپتيون فتقتلانه وولديه ، عقب تحذيره الطرواديين ألا يقربوا الحصان المشؤوم وألا يدخلوه مدينتهم ! !
وتعاون الطرواديون جميعاً فجروا الحصان المولة ، وهدموا بأيديهم جزءاً كبيراً من سور إليوم المنيع لتتسع البوابة للتمثال الهائل فكانوا كالتى نقضت غزلها أنكاثا ! ! ..

***

وكان الأسطول قد اختبأ فى ظلال الأيك النامى فوق جزيرة تندوس ، فلما كان النصف الثانى من تلك الليلة الخرافية الحالكة ، وكانت طروادة كلها قد استسلمت للنوم العميق الذى يسبق القضاء الصارم عادة فى مثل هذه الأحوال ، هب سينون الخبيث ففتح الباب السرى الذى لا يعرف إلا هو مكانه من الحصان ، وخرج الأبطال فقتلوا الحراس النائمين لدى الأبواب ، وأشعلوا النيران فرآها الجنود الذين عاد بهم الأسطول فى دجى الليل ، فانطلقوا سراعا إلى إليوم الخالدة . . . المستسلمة ... فدخلوها ... وأعملوا السيف ، وشرعوا الرماح ، واستباحوا المدينة ، وهتكوا الأعراض النقيـة ، وأحلوا حرمة الهياكل ، وأضرموا النيران فى القصور ، وأتلفوا الحدائق الفينانة ، وهشموا تماثيل الآلهة فى الميادين العامة ، وقتلوا الصبية والأطفال ، وجعلوا المدينة أطلالاً فى أطلال ! !

وهكذا !! وفى سكرة الليل ، وهدأة الظلام ، تم للهيلانيين الاستيلاء على تلك المدينة المتيدة وهبت من تحت الثرى عشرة أعوام طوال مضرجة بالدم ، ملطخة بالاثم ، حافلة بالذكريات ، غارقة فى الدموع ... تشهد إلى الفتح المجرم ، وترى إلى المأساة الطائلة فى آخر فصولها !!

وكان إيناس اليافع بن فينوس الهلوك من أنخيسيز ، فتى طروادة وأميرها الجميـل ذا القسمات ، يغط فى نومه العميق ، ملء سريره الذهبى الوثير ... مطمئنا آمنا ... لا يدور بخلده أن تحل تلك الكارثة بأليوم فى هذه الغفوة من الفجر ..

وكان إيناس مُحبَّبا إلى الآلهة ... ولم يكن قد جاء أجله بعد ... فسخّرت اليه ربات الأقدار طيف هكتور يزوره فى نومه ، ويريه حلماً مفزعا ... وينـذره ... « أن هب إيناس فقد سقطت طروادة ، وانج بنفسك وبأهلك فالأسطول ينتظرك ، واستنقذ التحف المقدسة والآثار الملوية ... فقد دنسها الفاتحون !! »

وذعر إيناس ، وهب من نومه لهفان صعقا ... وفزع إلى سلاحه ثم أشرف على المدينة المروعة فشهد المأساة تحل بها ...

وهاله أن يرى الوحوش الضوارى من بغاة الميرميدون ، وغزاة الهيلانيين ، يسوقون أتراب طروادة وبيض خدورها المكنون ... عاريات أو نصف عاريات ... إلى الأسطول ... ليكنّ إماء فى بيوت هيلاس ... ورقيقاً فى أسواقها ! ؟

وكاسندرا ؟ ! كاسندرا نفسها !! ابنة بريام الملك ... حبيبة السماء وصفية الآلهة !! التى حذرت أباها يوماً من قبول باريس... أن يحل البلاء بالمملكة وينزل الشؤم بالناس !! ها هى ذى مسوقة فى قبضة أجا ممنون نفسه ... أجا ممنون سيد القوم وقائدهم العام... إلى ... سفينته ! !

وفكر إيناس ، فلم يجد لانقاذ المدينة وأهلها من سبيل ... فأشار إلى بعض رجال قصره فقتلوا نفرا من جند الاغريق المتخلفين عن الجيش الغازى ، كانوا مشغولين بالسلب والنهب فى متجر قريب ، ثم نزعوا عنهم ثيابهم فلبسها إيناس وصحبه ليستخفوا بها عن أعين المغيرين ؛ وانطلقوا إلى القصر الملكى ، وبودهم لو استطاعوا أن يحموا الملك فى هذا الروع الأكبر ... ولكن وا أسفاه !! لقد كان بيروس بن أخيل قد سبقهم إليه فى عسكر مَجْر من أبالسة الميرميدون ؛ وكان بوليتيس بن بريام ، وآخر فرع من دوحته الباسقة آبقاً أمامه ، مكروباً مفزعا ، فاراً إلى ذراعى أبيه الضعيف الشيخ ، يلتمس الحماية فى أوهى حمى ... فلم يزل بيروس ينهب الأرض فى إثره ... حتى قتله بين يدى أبيه ، وانقض على الملك التاعس فوضع حدا لهذه الحياة الطويلة المملولة الشقية التى لطخها الدم البرئ وصهرتها جحيم الشدة ... ولم يغن عن بريام المسكين توسلات هذه الزوجة المعذبة التى وقفت بينه وبين بيروس ... هكيـوبا !! الملكة المرزأة ! التى بقيت وحدها لتجرع الثمالة الباقية فى كأس الحياة... صراً وعلقما ...

وهكذا صعدت روح الملك إلى سماء طروادة
تتلفت حولها ! ترى إلى المدينة الخالدة تضطرم
النيران فى جنباتها ... وتندك صروحها العزيزة
فى الرغام ... وتتهـاوى أبراجها المنيفة التى
كانت تسجد تحتها آسيا الجبارة ... والآن !
ها هو ذا على ثرى إليوم لقىً لا نفَس فيه !
وجثة هامدة لا تحمل اسمها بعد ... ورأساً
معفراً .... من غير جسـد !! (١)

(١) عن فرجيل

وزاغ بصر إيناس حين شهد هـذا المنظر الرهيب ، ووقر في نفسه أن مثل هـذه النهاية المحزنة قد تحل بأبيه الشيخ ، أنخيسز ؛ وبزوجته الهيفاء كروزا ، وبطفله المعبود إيولوس ... فلم يبال أن يقتحم صفوف الأعداء إلى قصره الذى خلا غابه اليوم من أسْده ، وبُدّل الشوك من ورده ، وعاث فيه جنود الميلانيين فأصبح قاعا صفصفاً ... كأن لم يَشْدُ في دوحه بلبل ... ولم يحن فيه فؤاد إلى فؤاد !

وهناك ... في إحدى الردهات المنعزلة ... وجد هيلين ! ! نعم ، هيلين ! سبب هذه الكوارث المتلاحقة التى حلت بطروادة والطرواديين ... هيلين التى لم تبال أن تتزوج ديفبوس — أخا باريس — عقب مقتل حبيبها بأيام معدودة ! !

وجدها هنالك ... تنقدح المصائب شرراً من عينيها ، وتتدجى غواشى الكروب فوق هامتها ، وتنعقـد ظلمات الكوارث على جبينها المغضن الكريه ... ... الجميل ! !

وهم إيناس أن يفتك بها ، لما ذكر من الأرزاء التى حاقت بطروادة من جرائها ... لولا أن بدت له أمه ... ڤينوس ! ... فأنذرته ألا يفعل ... ثم كشفت له حجاب الغيب المحرم على أعين البشر ، فرأى إلى الآلهة أنفسهم يعملون بأيديهم فى تخريب طروادة ، وتدمير الطرواديين ، وعلى رأسهم شيخ الأولمب وسيده ... زيوس ... كبير الأرباب ! !

« ... فانج بنفسك يا بنى ... ولذ بالبحر ... ولتنزح عن هذه الديار ... »

وانطلق إلى أبيه فنصح له أن يهرب معه ... ولكن أباه استكبر وأبى ... بحجة أنه ينتظر نبوءة من السماء توحى اليه بما توحى ... فغيظ إيناس وأغلظ لوالده القول ؛ ثم أمره أن يقبض بيديه اللاريتس والبينيتس [1] ، وأن يركب كاهلى ابنه وإلا قتلوا فى الحال !

فلم يسع أنخيسز إلا أن يطيع ... فسار ابنه يحمله ، وسار ولده الصغير أيولوس بجانبه ، وتبعتهم زوجه الجميلة كروزا ...

وكان قد اتفق مع أتباعه ، قبل أن يقصد إلى قصر الملك ، أن ينتظروه فى هيكل خرب قريب من مياه الهلسبنت ... فلما أقبل نحوهم يحمل أباه اتفقوا على أن يبحروا فى الحال ... ولكنه ... وا أسفاه ! افتقد زوجه فلم يجدها ... زوجه كروزا التى كانت الساعة فقط تتبعه ! ! لقـد قتلها كلب من شياطين الميرميدون ... ! ولما رجع إيناس ليبحث عنها لقيه طيفها الجميل .. عند تمثال ميزڤا ... فخاطبه قائلا ... « هلم يا إيناس ! غادر هذه الديار فى الحال ... واذهب إلى شطئان التيبر ، فان الآلهة قضت أن تبني بيديك ... رومة أم القرى ! ! » وأبحر إيناس ... وأبحرت فلول الطرواديين معه

وفى غبشة الصبح المضطرب ، كان صوت الطبل الكبير يقصف كالرعد فى خرائب طراودة . وكانت الجموع الحاشدة تهرول نحو الأسطول ، وكان السبى الكثير عذارى من طراودة وسائر نسائها يهرولن هن الأخريات نحو البحر ... فكنت ترى هكيوبا الملكة .. واندروماك الحزينة التى اغتصبها پيروس لنفسه ... وكاسندرا ... تلك النبية التى أحبتها السماء ... فأصبحت فى جملة السبى من سريات أجا ممنون وغانياته ... وكنت ترى غيرهن يهرولن فى الصباح الباكى إلى شاطىء الهلسپنت ، ليركبن البحر فينفين عن أرض الوطن إلى الأبد ...

وكانت كاسندرا تنظر إلى المأساة وتبتسم ...

وكانت أمها ترمقها بعينين دامعتين ... وتسألها عن سبب ابتسامتها ... فتفتر كاسندرا وتقول ... « أماه ليس حظ هؤلاء الغزاة المنتصرين بخير من حظ أبطالنا ... هأنذى أقرأ ألواح القضاء ... أنظرى ... ها هو ذا مصرع أجا ممنون بيد زوجته كليتمنسترا العاشقة ... إنها تفضل اليوم حضن عاشقها الآثم على جنة يكون فيها زوجها ... إنها ستقتله ، ستذبحه بيديها ... حينما تطأ قدماه أرض الوطن ... !

وانظرى يا أماه ... ها هو ذا أوليسز تعصف به الريح ... ويلعب به الموج ... ويؤرجحه البحر اللجى ... عشر سنين يا أماه يقضيها ملك إيثاكا فى تيه هذا الماء ... والعشاق يتقاتلون من حول زوجه ... وتليماك المسكين يضطرم غيرة ولا يستطيع أن يفعل شيئاً ...

وانظرى يا أماه ... ها هو ذا منالايوس ... بائس ... كم أنت بائس يا منالايوس ... لقد ظن المسكين أن هيلين نقية كما

(١) Lares & Penates تماثيل صغيرة للآلهة تحفظ فى المنزل لعبادتها (وهى من طقوس الرومان فقط)

هى ! ... لقد نسى التاعس أنها تقلبت فى أحضان أزواج غيره !... أنظرى إليه يقذفه البحر إلى شطئان مصر ... وانظرى إليه ذليلا بين يدى هيلين يتوسل إليها وكان أحرى لو أنه قتلها ... ...

* * *

ونسى الهيلانيون فى نشوة النصر أن يقربوا القرابين للآلهة التى نصرتهم وأيدتهم وأظفرتهم بأعدائهم ؛ قبل أن يبحروا ... فأثاروا غضب الأولمب ... واستنزلوا لعنة السماء واستحقوا حنق حيرا ونبتيون ومينرفا ... ونقمة زيوس ! !

لقد ثارت ثائرة مينرفا ... فانطلقت إلى أبيها وشكت إليه ما فرط هؤلاء الجاحدون فى جنبها وجنب الآلهة ... واتفق الجميع على أن يسخر نبتيون الجبار ... إله البحر ... أرياحه العاتية على أساطيلهم فتمزقها ... وتضلها تضليلا ...

فما كادت الأساطيل تمخر عباب الماء . . وما كادت تبتعد عن شواطئ إليوم .. حتى بدأت العاصفة تدوم . . وحتى أخذت الأمواج ترسل أعرافها حول السفائن ، وحتى نثر الثبج حبابه فوقها ... وحتى ارتعدت فرائص القوم ... ونظر بعضهم إلى بعض ... كأنهم فى يوم حشر ... ولا يتساءلون

ولقد صدقت كاسندرا !"

فها هى ذى الأساطيل الكثيفة تتمزق فوق سطح البحر ... وها هى ذى جوارى منالايوس المنشئات تدفعها العاصفة فى طريقها إلى . . . مصر . . . وها هى ذى مراكب أجا ممنون تتكسر على الصخور الناتئة فى عرض اليم ... وما يكاد يصل هو إلى مملكته أرجوس حتى تقتله زوجه العاشقة . . . مؤثرة عليه أحضان عاشقها الأثيم إيجستوس ... وها هى ذى سفين أوليسيز تضل فى البحر الشاسع ، وتتكسر بما عليها من سابح . . . ويظل البطل المغوار فى نقلة وترحل . . . عشر سنوات . . . وتظل زوجه بنلوب تنتظره . . . وعشاقها يقتتلون حول قصرها . . . وتلماك البائس ابنها ينتظر أوبة أبيه . . . حتى يعود بعد شدة وبعد لأى فيدمر المشاق الآثمين . . .

وهاك بيروس بن أخيل يعود ومعه أندروماك التى تظهر له الحب ، عاملة بنصيحة هكيوبا لها ... حتى تنشئ ابنها .. وكانت تمتزم مضايقة بيروس ومناوأته ليقتلها .... ولتستريح بالقتل من عذاب العيش بعد هكتور .... (١)

دريني خشبة

---

(١) يعتبر هذا الفصل الأخير من حروب طروادة النبع العذب الذى استمد منه اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدز أكثر دراماتهم الخالدة التى أربت على المائتين ، والتى لم يبق منها إلى اليوم أكثر من ست وعشرين . سبع لكل من اسخيلوس وسوفوكليس والباقى ليوربيدز ... وسنحاول أن نعطى للقارئ صوراً منها على صفحات الرسالة ، ثم نعقب بملاهى أرستوفان التى يعتبر أكثرها نقدا ليوربيدز

قصة :

الرجـــوع

إن ما ندعوه « قضاء » ليس إلا ما نقضيه
على أنفسنا « ميخائيل نعيمة »

بقلم الأديب عبد الوهاب الأمين

لم يكن صبياً غراً عندما فتنته تلك الغادة ، بل لقد حاول جهده أن يسيطر بعقله على جموح تلك العاطفة ، فغره لأول وهلة شيء من النسيان أحس به ، وظن أن الوقت قمين باستئصال ذلك الحب الفاسق ، وطاوعته نفسه بعد أسابيع أن يمزق صورتها ليلقيها في الموقد أمامه ، وقد عاوده طيف « العائلة » والزوج الحنون ، وأطفاله في الغيب ، وبسمة السعادة التي ستشيع على الوجوه ، فتنهد !

وكان دائم اللجاجة في « التحليل » ، فخيل اليه أن الأمر بلغ نهايته ، وأن جذوة الشباب فيه قد قرت ، وما عليه إلا أن يحنو على زوجته فتحنو عليه ، فيثمر ذلك الحنو حباً شريفاً . . . لا ذلك الحب المجهد ، حب المومس الذي تثيره غلمة وتقتله كلمة ! وأنه بعد هذه السنين الثلاثين جدير به الاقلاع عن اجهاد نفسه وعاطفته الجامحة بالتطوح في مثل هذه المجازفات !

وماله قد فتنه تصوير ! ألا يجوز أن يكون ليد المصور الفنانة فضل هذه الفتنة وهذا السحر ؟ بل هذا هو المنطق المعقول ، فليس لانسانة أن تمتلك مثل هذه النظرة المغرية ، وهذا السحر الفاتن ! إنها ولا شك فعلة الرسام !

وأطل عليه وجه زوجته في تلك اللحظة ، فتمثل فيه الطهارة والاخلاص ، وابتسم على رغمه لأن روحه الشابة المرحة لم تطق أن تقاوم البشر المنطلق من عينيها ، والطرب الشائع في نظرتها ! ورمته بقشر وهربت ! وانهزم معها فرحها الحي الطروب ! فتمثل لخياله الفرق بين هدوء حياته هذه التي سيقبل عليها ، وجموح تلك التي عزم على فراقها ، فاستشعر شيئاً من الحزن طاف به على هذا الفراق ، ومرت في ذهنه صور سريعة من ساعات اللذة واللهو يكاد ينسخها مر الأيام ... غير أنه عاوده شعوره بقوة عزمه السابق ومسؤولية الرجل الرزين الذي سيكونه عما قريب ، فمزق بقايا الصورة ورماها في الموقد ونظر إلى اللهب الصغير المتصاعد منه ، وشرد ذهنه

* * *

تقدمهم الصبي بخفة إلى باب المقصورة وفتحها بتؤدة وعلى فمه ابتسامة متكلفة . وأخذ يفرك يده متظاهراً بالبشر لقدوم « سيده » الذي طالما نفحه بالعطايا الصغيرة التي كانت تتسع وتكبر حسب ما يقوم به من خدمة ! وكان يبتهج كلما أبصر « سيده » بصحبة امرأة ، فان وجودها معه يعني ضرورة الحاجة إلى خدمته ورعايته اللتين يستدرهما عند ارفضاض السينما نقوداً يطبق عليها أنامله بخفة ، وعلى وجهه تلك الابتسامة التي لقيه مساء اليوم بها ، والتي يكرهها « سيده » منه فلا يرفع بصره اليه !

وكان «العرض» مهماً ، والقاصير كلها ملأى بالمخلوقات الجميلة ، وكانت عين الناظر تلقف بين كل ثانيــة وأخرى عضواً بارزاً نسوياً جميلاً بين تلك المناظر السينمائية الخلابة والاعلانات الملصقة على الجدران ، وتعلو بين تلك الضجات المختلطة بضمة أصوات ناعمة تتطور بعض الأحيان إلى قهقهات صافية الجرس ، تعلوها رنة النعيم !

وكان وهو ينزع عن كتفيه معطفه الثقيل ويدير عينيه بين المقاعد يلحظ أن صوتاً في المقصورة إلى جانبه يرن في أذنه فيترك صدى غير اعتيادي . . . جذاب ! ساحر ! غير أن انتقاء المقعد شغله وصرف ذهنه هنيهة عن تتبع أثر ذلك الصوت في روحه ، ولما جلس أخيراً لم يكن في ذهنه غير ذلك الصوت وصاحبتــه اللعوب ! وبدرت منه — من غير قصد — التفاتة إلى المقصورة فاصطدم نظره المستريح بها ... ! نعم هي ! وقد ظهرت في ثوبها البهيج أشد فتنة من صورتهـا ، وزاد في جمالها الأخاذ سحر التجمل ، فأدرك أن قوته تخونه ، وأنه أمام شخص يملك سحراً يزيد على سحر المرأة ، فعادت اليـه فجأة وبسرعة كل خيالاته التي نسختها عزيمتــه أولاً ، واستعادت مخيلته أوبقات التأمل التي كان يقضيها في مناجاة تلك الصورة على أشد وأقوى حالاتها ، وأحس وهو يدير نظره عن وجهها الذي بدت عليه البغتــة أنه يقتلعه اقتلاعاً ، وأن شيئاً من قلبه وحسه قد تملق بتلك الأهداب السحرية التي زاد جمالها الطبيعي الأخاذ اعتناء خاص بتنسيقها

وتجميلها ، وأدرك في قرارة نفسه أن سيطرة هـذه المرأة عليه أمر محتوم وقضاء لا يرد !

وانتهز فرصة « الفاصلة » فاحتج برغبته في التدخين وأصر عليها ، ثم حسم المشكلة بخروجه من المقصورة ، وكان شيء في رأسه يدور ويدور ! وهو عراك نفسي بين عاطفتين قويتين لا يكاد يركن لاحداهما حتى تبرز نتائجها ملموسة لعينيه ! أيحب هـذه المومس وهو يعلم أن حبها يفقده أشياء كثيرة وعزيزة عليه ؟ أيتركها ولا يلتفت إلى تلك النظرة الصارخة في عينيها ، وقد بدت الليلة بوضوح في ملامح وجهها وشفتيها ، ولم تستطع البغتة أن تخفيها من عينيها الأخاذتين ! وهل هو قادر على أن يهمل اهتمامها الظاهر به ، وهو الذي كان يقضي الساعات في مناجاة صورتها ؟ وما يدريه ! لعلها تصطنع كل ذلك لاستمالته ! إنها خبيرة ولا شك بفعل هذه النظرات في القلوب ! إنها تاجرة تريد أن تغبنه بصفقة خاسرة ، تريد منه قلباً بروح ، لتعطيه قلباً بلا روح ! كلا إن ذلك لن يكون !

ووقف ذهنه عند هذا الحد ، فقد بدت من مقصورتها ومشت إلى ناحيته بتؤدة ، ولما وصلت إليه أسرت قائلة :

— كازينو أنترناسيونال ، منتصف الليل

ومنحته فوق ذلك ابتسامة !

***

عاد بسيارته بعد أن أخبر زوجته أنه سيقضي السهرة مع صديق له ، وأنه سيتأخر عن وقت قدومه المعتاد ، وانطلق كالسهم بها على غير قصد ، ثم خطر له أن يشرب فوقف عند أول حانة !

وبعد الكأس السادسة نظر إلى الساعة فوجد أن بينه وبين الموعد ما يقارب الساعة ، فخطر له أن يقضيها متجولا لأنه شعر بالاكتفاء من الشرب وقام

ولم يكن « التجول » في مخيلته غير السير إلى طريق الكازينو ! فوقف على بابه وفي صدره عراك ، وفي خطواته تردد وإحجام ، وألقى نظرة تائهة على الوجوه فلم يجد بينها غادته ، فساقته قدماه إلى الباب وعاد إلى مقعده في السيارة وقد خطر له أن موقفه ناطق بالذل والعبودية ، وأنه يسيء إلى نفسه بذلك العمل ، وأن شعوره بكرامته وكبريائه قد ثلم ، وبدت على وجهه غضون وغيوم !

وفي تلك اللحظة فقط شعر أنه تعب منهوك ، وأن حاجته إلى النوم شديدة ، فقبض على محرك السيارة وأداره بخفة ولباقة ، وشعر أن كل ما فيه في تلك اللحظة عزيمة قوية ! وأن في تلك العزيمة قضاء لا يرد !

واختلطت في ذهنه الأفكار والصور وعجز عن متابعة نتيجة عمله ، وشعر بشيء من الكلال والفتور والأعياء ، وكانت ابتسامته لزوجته جامدة ، وكان على غير عادته في النوم السريع بدون مزاح ولا دعابة

ولما سيطر سلطان الكرى على جفنيه كانت الساعة تؤذن بانتصاف الليل ، وكان ذهنه الكليل يدرك أن في دقاتها أمراً ! غير أنه لم يدرك دقاتها الأخيرة !

عبد الوهاب الامين

البريد الأدبي

وفاة روديارد كبلنج عميد الشعر الانكليزي

منذ أسابيع قلائل كان عميد الشعر الانكليزى المعاصر روديارد كبلنج يحتفل ببلوغه السبعين من عمره ؛ ولكن الشاعر الأشهر لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل ، ثم توفى فى الثامن عشر من يناير الجارى

وقد ولد روديارد كبلنج فى الهند بمدينة بومباى سنة ١٨٦٥ وكان أبوه جون كبلنج فناناً أديباً ؛ وكان وقت مولده يشغل منصباً فى مدرسة الفنون الجميلة ببومباى ؛ وتلقى كبلنج تربيته فى إنكلترا فى كلية ديفون ؛ ثم عاد إلى الهند فى سن السابعة عشرة ؛ واشترك فى تحرير صحيفة انكليزية تصدر فى لاهور . وفى سنة ٨٦ أخرج كبلنج أول آثاره الشعرية فى مجموعة سماها « الأغانى الاقليمية » ؛ وأعقبها بمجموعة قصصية عنوانها « قصص من التلال » وتوالت آثاره القصصية بعد ذلك فأخرج منها ، « الأبيض والأسود » و« الشبح ركشو » و« وى ولى ونكى » وغيرها ؛ فذاعت هذه القصص فى الهند والصين واليابان ، وطارت شهرة كبلنج إلى ما وراء البحر ، واستقبل كبار النقدة فيه قوة أدبية جديدة ، وتجول كبلنج فى بضعة الأعوام التالية فى الهند والصين واليابان وأمريكا ، ثم عرج على انكلترا حيث سبقه صيته ، واستقبل بما يليق بأدبه وشعره من التجلة والتكريم ؛ وتجول بعد ذلك حيناً فى إفريقية ، ونشر عن سياحاته المديدة كتاباً سماه « من بحر إلى بحر » ، وفى سنة ١٨٩٠ أخرج كبلنج مجموعة قصصية عنوانها « نضال الحياة » ، وأتبعها بأخرى اسمها « النور الذى خبا » بيد أن عبقرية كبلنج الأدبية تصل الذروة فى كتابيه الشهيرين : « كتاب الغابة » The Jungle Book و « كتاب الغابة الجديد » ، وهما كتابان قصصيان عن حياة الحيوان فى الغابة على مثل كتاب « كليلة ودمنة » فى أدبنا العربى ، وعلى مثل بعض قصص الحيوانات والطيور التى وردت فى ألف ليلة وليلة ؛ وفيهما يعرض كبلنج بعض خواص الحيوان الطبيعية والنفسية عرضاً رائعاً ساحراً ؛ وكان ظهور هذين الكتابين الأول فى سنة ١٨٩٥ والثانى فى سنة ١٨٩٦ ، أعنى حينما بلغ كبلنج الثلاثين من عمره . ويعتبر النقدة كتابى « الغابة » أروع ما فى أدب كبلنج وانتاجه . واستمر كبلنج فى انتاجه الأدبى يخرج المجموعات القصصية والشعرية تباعاً ، ويرتفع باستمرار فى سماء المجد والشهرة . ومن مجموعاته الشعرية الشهيرة غير ما تقدم « الأمم الخمس » (سنة ١٩٠٣) و « أناشيد من الكتب » (سنة ١٩١٣) و « الديوان الشامل » ، وفيه يجمع طائفة كبيرة من شعره المتفرق . وكتب كبلنج أيضاً « تاريخ انكلترا » بالاشتراك مع صديقه فلتشر ؛ وفقد كبلنج ولده فى الحرب الكبرى ، فرأى أن يخلد ذكرى الفرقة التى حارب معها فى كتاب عنوانه « الحرس الأرلندى فى الحرب الكبرى » (سنة ١٩٢٣) ؛ وكتب كبلنج غير ذلك كتباً أخرى من القصص والشعر يضيق المقام عن ذكرها

ويلقب كبلنج فى الأدب الانكليزى بأنه « شاعر الأمبراطورية » ؛ وهذه فى الواقع أبرز خواص الشاعر الأكبر ؛ وربما كان فى هذه الخاصة ما يباعد بين أدبه وبين العقلية الشرقية ؛ فقد كرس كبلنج كثيراً من نظمه ونثره للاشادة بعظمة الأمبراطورية البريطانية وما أحرزت من سيادة واسعة على كثير من الشعوب ، وما أصابت من النماء والغنى ، وما يجب عليها أن تتذرع به لاستمرار هذه السيادة الشاملة على الشعوب المحكومة ؛ وفى هذه المواطن يبدو كبلنج استعمارياً مغرقاً فى القومية . بيد أن كبلنج ، فيما عدا ذلك ، يتمتع بخواص أدبية وشعرية باهرة ؛ وأسلوبه قوى ساحر يفيض بياناً وبلاغة ؛ وقد انقسم النقدة فى شأنه إلى فريقين ، فريق يرتفع بأدبه إلى الذروة ، ويرى فيه المثل الأعلى للشعر المعاصر ، ومن هؤلاء روبرت لند الذى قال عن كبلنج « إن عبقريته تشرق على جيله فى البلاغة

والفكاهة » وفريق وهو الاقلية ينتقص من مكانة كبلنج ، ويرميه بأنه سطحي في شعره وفي نثره ، وأنه يكتب بأسلوب راق يرضي الجماهير فقط . وزعيم هذا الفريق جورج مور . بيد أنه مهما قيل عن كبلنج وعن مواهبه وخلاله ، فلا ريب أنه يتبوأ أرفع مقام في الأدب الفيكتوري

وقد نال كبلنج طائفة كبيرة من الجوائز والأوسمة الأدبية الرفيعة ، فنال جائزة نوبل للآداب في سنة ١٩٠٧ ، ونال الوسام الذهبي لجمعية الآداب الملكية ، ومنح عدة أجازات فخرية من الجامعات الكبرى ، ولبث مدى أعوام مديراً لجامعة سنت أندروز

قضايا التاريخ العظمى

أصدر الأستاذ هنري روبير المحامي الفرنسي الكبير جزءا جديدا من كتابه الشهير « قضايا التاريخ العظمى » Les grand Procès de l'Histoire ، وهو الجزء العاشر من ذلك الأثر الحافل الممتع ؛ ويعرف عشاق الأدب الفرنسي كتاب الأستاذ هنري روبير حق المعرفة ويقرأون أجزاءه المتوالية بشغف ولذة، وهو كتاب يفيض في الواقع طرافة وقوة وسحرا ، وفيه يتناول المحامي الأشهر طائفة كبيرة من أشهر القضايا التاريخية والجنائية المروعة ، ومعظم هذه القضايا والحوادث معروف للقارئ المثقف ، ولكن الجديد فيها حقاً هو الأسلوب الرائع الذي يعرضها به الأستاذ هنري روبير على قارئه ؛ فهو محام بارع تخرج على يد الأعلام من أقرانه السابقين مثل لاشو وديمانج ولابوري أعلام البيان والدفاع في القرن الماضي ، ثم هو كاتب من الطراز الأول يتشرف بالانتماء إلى الأكاديمية الفرنسية والانخراط في سلك الخالدين ؛ وهو بهاتين الصفتين يقدم إلى القارئ تحفة قضائية وأدبية رائعة ، عرضت في أسلوب قضائي وتاريخي واضح ، ونظمت فيه الأدلة والفروض القضائية إلى جانب التعليلات التاريخية والاجتماعية البارعة . وربما كان عيبا في هذا الأثر الحافل أن يخصصه هنري روبير كله تقريباً لاستعراض قضايا التاريخ الفرنسية (وإن كان يقص فيه قليلاً جداً من القضايا الأخرى) ولكن ربما كان ذلك أيضاً من عوامل قوته ودقة معلوماته ووثائقه

ويتناول الجزء الجديد الذي أصدره هنري روبير عدة فصول أولها فصل خصص لحوادث السموم والنسوة المسممات في القرن السابع عشر ، وهي حوادث تناولها من قبل المؤرخ البارع فونك برنتانو في كتاب قوي ساحر ؛ وفصل خصص لفضيحة بناما الشهيرة التي انتهت بافلاس الألوف وضياع مئات الملايين ، ومحاكمة نفر من كبار المولين والساسة يومئذ والحكم على بعضهم بالسجن ؛ ثم فصل خصص لحياة كاترين دي مديتشي ملكة فرنسا ووالدة هنري الثالث وفرانسوا الثاني وشارل العاشر ملوك فرنسا ، وهي امرأة رائعة وافرة الدهاء والخبث ؛ ولكن الأستاذ هنري روبير يحاول أن يخفف عنها حكم التاريخ القاسي ، ويتلمس لها أعذار السياسة والملك

والأستاذ هنري روبير يخرج فصوله الساحرة دون نظام معين ، ففي كل جزء من كتابه أربعة فصول أو خمسة لا تجمعها رابطة العصر أو النوع ؛ ولهذا لا يعتبر الجزء الجديد خاتمة الكتاب ، وليس يعرف من جهة أخرى أني يقف الكتاب وأيان ينتهي

شكسبير والسينما

سنرى قريباً أول رواية لشكسبير على ستار السينما ؛ وهي فكرة جريئة للفنان المشهور مكس رينهارت ، فهو يعمل الآن لاخراج شريط مصور من رواية شكسبير المسماة : « حلم ليلة صيف » ؛ وقد سبق أن عمل رينهارت لاخراج روايات شكسبير الكبرى على المسرح ، ونجح في ذلك نجاحاً عظيما ؛ فهو الآن يعالج إخراجها على ستار السينما ؛ وكذلك عمل رينهارت لاخراج روايات أعظم كتاب المسرح مثل موليير ، وابسن ، وبرناردشو ، وشترندبرج وغيرهم ؛ وكان مكس رينهارت أول فنان وأول مخرج مسرحي في ألمانيا حتى جاء الهتلريون في الحكم فلم يشفقوا على علم ولا فن ، وأطلقوا العنان لتعصبهم الجنسي الشنيع ، وشردوا أقطاب الفن لأنهم يهود ؛ وكان رينهارت في مقدمة أولئك الذين رفضوا البقاء في ظل هذا النظام البربري ؛ وهو يتجول الآن في عواصم القارة فيلقى فيها أعظم حفاوة وتقدير

ومكس رينهارت نمسوي الأصل ؛ وقد ولد في سالزبورج سنة ١٨٧٣ ، فهو الآن في نحو الثانية والستين من عمره ؛ وقد شاءت بلدية مدينة سالزبورج أخيراً أن تكرمه وأن تخلد ذكراه فأطلقت اسمه على شارع من أهم شوارعها ، وسالزبورج هي مدينة الفن والموسيقى

النقد

رد على نقد

٤ - كتاب تاريخ الاسلام السياسى

للدكتور حسن ابراهيم حسن

تتمة

ومن الغرابة أيضاً أن نجد الناقد يأخذ علينا أننا كثيراً ما نستمد ونقتبس من كتاب «تاريخ العرب» لسديو، و «موجز تاريخ العرب» للسيد أمير على، و «الحضارة العربية» لجوستاف لى بون، و «أتباع محمد» لواشنجتن أيرفنج، لأنها فى نظره أصبحت قديمة قاصرة من حيث المستوى العلمى فى الوقت الذى نراه فيه يشيد بمدح المستشرق مرجليوث، ويستدل به فى نفى الكتاب عن ابن قتيبة. وقد يدعوه الاعجاب بمرجليوث فيدافع عنه ضمناً بأننا لم نحسن الرد عليه حين قال: «فى صدد الرجلين اللذين أرسلهما عامل كسرى على اليمن ليأتياه بالرسول، فلما قدم الرجلان على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخبرهما بأن كسرى قتل وأن ابنه هو الذى قتله»، أن الرسول كان له من يأتيه بالأخبار!! أما والله لولا أن الناقد مسلم كما نعتقد!! لظننا أنه يردد صدى هذا المستشرق الذى ينكر كل معجزة للرسول ويذهب فى التأويل بعيداً بحجة المعقول وغير المعقول، ولو كان حصوله أوضح من الشمس فى وضح النهار

انظر الى هذا الناقد يجعل من عيوب كتابنا أننا لم نبطل هذه الرواية الدالة على المعجزة أو نتأولها على الرغم من تعرض كتب السنة الصحيحة لها وإثباتها، وعلى الرغم من أنه يعلم كيف يتغلب التعصب الدينى أحياناً على روح العلم والبحث عند بعض المستشرقين، فينظرون إلى ما ورد عن الرسول من خلال مذاهبهم الدينية لا أبحاثهم التاريخية، ولسنا فى حاجة لايراد الأمثلة والشواهد على ذلك، فهى فى متناول كثير من الناس

ولشد ما أعجب من حضرة الناقد حين يأبى أن يكيل لنا المدح جزافاً، ولكنه لا يأبى أن يكيل الذم كذلك ويخطئنا تخطئة لا حق له فيها، من ذلك أننا لما روينا قول بعض المؤرخين إن بعض الخوارج كانت تصدر منهم أمور متناقضة تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء، كلومهم آكل الرطبة بدون دفع ثمنها، واسترضائهم ذمياً بدفع ثمن خنزير له قتلوه، وقتلهم عبد الله ابن خباب وزوجه وبعض النساء — علقنا على ذلك فقلنا إن هذا ليس من التناقض فى شيء، وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلواً فى تطبيق مذهبهم، وحجتنا فى هذا أن الخوارج يرون وجوب قتل المسلم الذى لا يدين برأيهم لأنهم يعتبرونه مرتداً؛ وحروبهم المتعددة مع على بن أبى طالب ومع الأمويين، بل وأشعارهم وأراجيزهم تنطق بذلك. أما الذمى فلا سلطان لمذهبهم عليه، كما أنهم كانوا لا يستحلون أكل المغصوب أياً كان صاحبه، ولو أنهم يستحلون قتل النفس التى حرم الله قتلها. فمن أين يأتى التناقض يا ترى؟ حبذا لو أرشدنا الناقد إلى وجه آخر فى هذه المسألة خلاف ما ذهبنا إليه! فليس إلقاء الكلام على عواهنه مما يُخدم به «المادة الناشئة فى معاهدنا العلمية أو يحفظ لمصر سمعتها فى الأقطار الشرقية!»

لا يقل خطأ الناقد فى هذا عن خطئه فى دعواه، بأننا مع استشهادنا ومباهاتنا بتلمذتنا لبعض المستشرقين ننسى ما ننقله عنهم أحياناً وننسبه لنفسنا، وأننا جرينا على ذلك فى الفصل الذى عقدناه لمكتبة الإسكندرية، ويكفى فى الرد على هذه الدعوى الجريئة أن يرجع القارىء إلى كتابنا عمرو بن العاص فيجد أننا ذكرنا هناك رأى «بطلر» مفصلاً فى إحراق هذه

المكتبة ، وعلّقنا عليه بما يستحق من تقدير . فاذا أحلنا القارىء إلى كتابنا المذكور ، فذلك لأنه يعتبر خاصاً بهذه المواضيع مدوناً فيه آراء بعض العلماء منسوبة اليهم عن هذه الحادثة العظيمة الشأن

ولقد كنا نربأ ببعض الأقلام أن تنزلق عن منهج النقد الخالص إلى إلقاء التهم والظنون بين الناس وغرس ما لا يستحسن غرسه بين التلميذ وأستاذه أو بين المؤرخ والمؤرخ . وحاشا لله أن ندعى ما ليس لنا أو أن نجهل فضل من جلسنا أمامه مجلس التلميذ ، فاذا رغبت بعض الأقلام فى أن تتهمنا بالتدليس مع بعض الأساتذة المستشرقين ، أو بالعقوق مع أستاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك الذى نقدره ونجله ، فانما تحاول عبثاً هذه الأقلام وتمكن من نفسها وتدل على مصرعها . إن المتصلين بنا يعرفون أن ليس من خلقنا إنكار الجميل . ونحمد الله أنه فى الوقت الذى كان الناقد يفكر فى هذه الوقيعة بيننا وبين استاذنا المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك كان أحد أفراد أسرته يتكرم بزيارتنا ويعرض علينا أن نشرف على نشر ما خلفه المرحوم من الكتب التى لم تنشر فى حياته . ويا للعجب إذا كانت الجرأة والضمير يطوحان ببعض الناس إلى إثارة الضغينة بين الحى والميت ، فكم تبلغ عفتها فى أن توقع بين الحى والحى ! ! ألا فليرح الناقد باله من هذه الناحية فلن يجد غرسه أرضاً خصبة ولا يشفى به غيظاً

* * *

كيف يمكن أن يوفق القارىء بين قول الناقد إن هذا الكتاب عرض لنواح شتى من الحياة الاسلامية القديمة : عرض لنواحى الدين ، والسياسة ، والاجتماع ، والعقل ، والأدب ، وبين قوله — عفا الله عنه — « إن المؤلف غير موفور الثقافة الاسلامية وقد أداه تفريطه فى جانب الثقافة الاسلامية إلى الافراط فى الأخذ عن المصادر الأجنبية » ، ومن يدرى ؟ فلعل هذا تفريط قلمت عيناه فأبصر

جرت العادة أن يسمى الكتاب بأبرز نواحى موضوعاته ، واللبيب يدرك بداهة أن فتح عمرو بن العاص مصر مما ينطبق عليه انطباقاً كلياً لفظ السياسة ومعنى السياسة ، ويدرك كذلك أنه كان لعقائد الفرق الاسلامية ومذاهبها المكان الأول فى إحلال دول مكان دول ، وتقويض عروش وتدعيم عروش . فهذه الدولة العباسية استطالت أطالها بسبب انتشار العقائد الشيعية وتغلبها ؛ وتلك دولة الفاطميين خلقتها المذاهب الدينية أيضاً . ودع عنك القرامطة ، والباطنية ، والخوارج وغيرهم ؛ فتلك أمور يطول شرحها . فأنت ترى مبلغ تأثير تلك العقائد فى الاتجاهات السياسية ركوداً وهبوباً ، وماذا تكون السياسة إذا لم تكن هى خلق منشآت جديدة ، وتنظيم أمور الناس وفق مشارب ملوكها وأمرائها ، وطبع المجتمع على غرار ما يراه الحاكمون سواء بسواء ؟ لكن ناقدنا يأبى مع هذا معنفاً بأن عنوان الكتاب قاصر لا يجمع مثل هذه البحوث ، فما كانت تصح نسبتها اليه ولا وضعها فيه ، ويتعطف فيرشدنا إلى أنه ينبغى — إذا لم تكن مندوحة عن ذكر هذه الأبحاث — أن نصوغ عنوان كتابنا بما يدل على الشمول ، ويزداد تعطفاً فيذكرنا بكتاب « موجز تاريخ العرب » للسيد أمير على الهندى الذى نعرفه حق المعرفة ! ولقد كان بودنا أن نتبع نصحه — ولو مرة واحدة — تشجيعاً للنقد ، وثقة بنية صاحبه ، لولا أنه سها عن أننا بسبيل وضع جملة أجزاء لكل جزء عصر خاص به . فاذا اقتدينا بمن ذكره لحق علينا قوله ليس لدينا غرض واحد محدود نرمى اليه ونسير على هديه ، ولعله تذكر أخيراً أن هناك خمسة أجزاء باقية ستصدر بعد هذا الجزء — إن شاء الله — فلم يشأ إلا أن يزودنا — كعادته — بنصحه ، وبأن نكون فى وضعها أشد تحفظاً وأكثر تثبتاً

على أننا نضحك أشد الضحك حيث يرشدنا الناقد إلى الاقتداء بوضع السيد أمير على لاسم كتابه « موجز تاريخ العرب » ذلك الكتاب الذى وصف مؤلفه بأنه « متوسط المكانة التاريخية » كما وصف أيضاً المؤرخ المشهور السير وليام ميور الذى خلف لنا كتابه فى سيرة النبى وكتابه الآخر فى الخلافة بأنهما قديمان . ونحب — قبل أن نترك هذه النقطة — أن نهمس فى أذن الناقد بأن المؤلف الأول السيد أمير على ، الذى لم يرق فى نظره أن أخذنا عنه بعض ما أخذنا ، يقول عنه الأستاذ ادوارد براون فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى (E. G. Browne, Literary History of Persia, 4 vols. I. P. 188) فى سياق كلامه على مبدأ ظهور الاسلام ما نصه :

« هذه المسائل قد ناقشها فى مؤلفاتهم بكفاءة ولباقة كل من سيل ، وسبرنجر ، وميور ، وكرهل ، ونلدكه ، وبوزول سميث ، والسيد أمير على

والسيد أمير على هو ذلك المسلم العصرى الواسع الفكر والاطلاع ، جمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، وهو حقيق بأن يطلع على كتابه كل من يرغب فى تفهم ذلك النفوذ القوى الذى لا يزال يتمتع به الاسلام ونبيه ، حتى فى نفوس هؤلاء الذين أشربوا روح الثقافة الأوربية »

ونعود إلى بعض ما أورده حضرة الناقد — أستغفر الله ! بل إلى الارشاد إلى ما نقده — ليعدل فى المستقبل عن تكلف ما لا يحسن — على رأيه فينا — وليستوعب ما يقرأ ويصرف نشاطه فى مدارستها ، فما يكون الانسان كاتباً إلا بعد أن يكون قارئاً ، وإنها لكبيرة أن يعمد واحد إلى كيل التهم والتشكيك غير مراع للتاريخ حرمته ، ولا للقارئ عقليته ، ولا للحق كلمته

يقول : « إن تشريع القبلة وحكمته يظفران فى كتابنا بثلاث صفحات ، فى حين أن غزوة بدر التى تعتبر بحق أهم وقائع الاسلام ، ومن وقائع التاريخ الفاصلة لا تكاد تظفر بصفحة واحدة ؛ وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين ، فى حين أن الأحداث الجسام التى وقعت زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط فى أسطر قلائل »

وبحسبنا أن يرجع القارئ إلى كتابنا ليرى كيف تفتل بعض الأقلام من الهواء حبالاً ، وتخلق من الواقع محالاً . إن غزوة بدر ومقدماتها ظفرا وحدها من صفحات الكتاب بنحو الثلاث عشرة صفحة (صفحة ١٣٦ — ١٤٨) ، وإلا فهل كان الناقد يظن الكلام فى الجهاد وأسبابه ، والغنائم وشرعيتها ، وهل الدعاية إلى الدين كانت من طريق السلام أو الحسام — كل هذا يظنه بمنأى عن غزوة بدر ولا يتعلق بها ، وأننا لم نفصل الكلام على هذه المواضيع بمناسبة تحالف تلك الغزوة الخالدة ؟ وهل كان يريد أن نستبدل هذه الأحداث الهامة بذكر ما قيل فى رثاء قتلى المشركين ، وما تقدمت به قتيلة تماتب الرسول لمقتل أخيها النضر ، وما وقع فى قتل أبى جهل مما تختص به كتب السير ؟ أما إن الاحداث الجسام التى وقعت زمن يزيد ابن الوليد ركزت وضغطت فى أسطر قلائل فدعوى غريبة ، يكفى لوأدها صفحات الكتاب من ٥٢٣ إلى ٥٥٠ ، وفيها أسباب سقوط الدولة الأموية ، والتعرض بالتفصيل لهذه الأحداث الجسام التى وقعت أيام يزيد وغيره

إنما اللوم على من يحسبها ظلمة من بعد ما يبصرها

***

فى الأمثال « لا يشكر الله من لا يشكر المحسن من الناس » وإذا كنا فى كلمتنا السابقة أخذنا على بعض المستشرقين أنهم أحياناً ينظرون إلى تاريخ الاسلام من خلال مذاهبهم الدينية ، لا أبحاثهم التاريخية ، فاننا لا نكتمهم حق الشكر على أنهم عاونوا فى رفع الحجب التى أسدلتها العصور المظلمة على تاريخنا ، وسلكوه فى سلسلة تصل أوله بآخره ، وتمد القابض عليها السائر حذاءها بما يمكنه من إدراك ما فيه من قوة وضعف واعتلاء وابتلاء . هذا ما كتبه فون كريمر ، وبروان ، وكرهل ، والسير توماس أرنولد ، وأميل درمنجم وغيرهم ، يدل على توفيق كبير فى استخراج الوقائع والعبر التاريخية واضحة جلية بعد أن اختلطت أحداثها وتعددت نظمها وآراؤها ، وبعد أن كان التاريخ سيرا يتفكه بها الخالون ويحتقرها المالون ، صار بفضل تلك الأبحاث العلمية الحديثة فناً كريماً تقرن فيه الموقعة بالموعظة ، وتلحق فيه البينات والشواهد آثار رجالاته وبيئاته ، حتى غدت منابعه عذبة للواردين وطرقه معبدة للمدلجين . فليس من الانصاف ما ذهب اليه الناقد من أن التاريخ الاسلامى لم ينهض بعد فى الشرق نهضته المستقلة المنشودة ، وأنه لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى . أجل ! كان من حسن الحظ — أو من سوئه — أن الناقد بعد أن نعى علينا ما نعى ، وبعد أن ملأ مقالاته الأربع بما يسترهب بعض الألباب حتى ظنته إمام هذه الصناعة ، ذهب بعيدا جدا فى الاعتداد والارشاد ، وعمم بعد تخصيص ، وألقاها كلمة داوية بأن التاريخ الاسلامى فى الشرق لم ينهض نهضته ولما يجد من يقيل عثرته ، وأن روح الجماعات وأثر البيئة والتقاليد وعمل المبادئ والعقائد ، والقوى الاجتماعية والاقتصادية لا تزال فى العربية أسرارا لم ترفع عنها الحجب . فهذا الكاتب يرى أن كل ما ألف أو درس فى التاريخ الاسلامى من

أصول وفروع وبيئات وتقاليد لغو وباطل ، سواء أكان الدارسون شرقيين أو مستشرقين

كان الظن بمن ينقد شيئاً أن يرينا مثلا أعلى لما ينبغي أن يكون عليه طريق البحث ويدلنا عما صنع هو للاحتذاء والأسوة ، فالنفس دائماً مولعة بأن تتبع ذا الفعال ، وقلما تفيدها الأقوال « ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتعظيم من معلم الناس ومؤدبهم » . ويظهر أن الناقد استثمر هذا الاشكال الجديد ، فهو يحاول النجاة بأن الذي يحول دون نمو الروح التاريخي الصحيح في الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك وبعد الشقة وصعوبة المنال . مرحى مرحى ! ! كأنه يعتذر عن عدم إخراجه ولو مؤلفا واحدا بما ذكر ، ويتهم كل المؤرخين بأن التاريخ في كتبهم لا يزال قصصاً يقص وسيراً ساذجة تتلى ، ويكتب أربع مقالات ينقدنا فيها نقداً لاذعاً ، ويدعونا إلى الأخذ من هذا وترك الأخذ من ذاك . وما عهدنا واعظا حكيما يهدي إلى طرق لم يسلكها ، ويكلف الناس بواجبات لم يتذوقها ، أو يثقل عاتق الناس بما يعجز عن حمله ، أو يسهو عن أن الحكم عن الشيء فرع عن تصوره . عفا الله عن ابن المقفع ، فقد ذكر في ترجمة « كليلة ودمنة » أمثالا صالحة لمن يغشى حلبة السباق وهو مقعد ، أو يتولى سدة الوعظ وهو محتاج إلى الرشد

وبعد فما كان أغنى قراء « الرسالة » عن هذا كله ، وما كان أحق النقاد ألا يشرعوا قلمهم إلا لله والمصلحة العامة ، لا تنزو بهم نازية من خوف أو طمع . ولكن هكذا قدر (ولو شاء ربك ما فعلوه)

ولقد رأى حضرات القراء أن هذه الزوبعة التي هول في أمرها وأطال في ذكرها لم تكن بذات خطر نعدله في تجريحه مدا . ولله الحمد قد آن لنا بعد أن حصحص الحق أن نمسك القلم شاكرين « للرسالة » والقراء ، معتذرين — بدورنا — عما عسى أن يكون بدر به القلم — فالبادئ أظلم . ومن لا يثار على الحق وكرامته يتهم في رجولته . (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

انتهى حسن ابراهيم حسن

الكتب

مفتاح كنوز السنة

من عمل الأستاذ ا . ى . فنسنك

ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

بقلم الأستاذ محمد حامد الفقي

مطبعة مصر : ثمنه ستون قرشاً مصرياً

كان الباحث الذى تتوجه نفسه إلى معرفة علم الحديث والاشتغال به يجد نفسه أمام كنوز ملأى بالجواهر النفيسة ، فاذا ما حاول فتح مغلقها أخذه من العناء والمشقة الشيء الكثير المضني ، لأنها جمعت على طرق من التأليف كانت آخر ما وصل اليه تفكير المتقدمين حين لم تكن مطابع ، ولم تخرج العقول هذه الفنون المدهشة من الفهارس ، والمفاتيح التى وصل اليها عقل العلماء اليوم بكثرة المران

كان يجد أمامه هذه الصعاب ، فيضرع إلى الله تعالى أن ييسر بفهرس يكون مفتاحا لهذه الكنوز ، يهون عليه الوصول إلى بغيته ؛ ولقد طال أمد هذه الضراعة حتى خرج علينا الأخ الفاضل محمد فؤاد عبد الباقى بهذا المفتاح المبارك الذى ما ترك كنزا مغلقاً إلا فتحه على مصراعيه ، ونثر دره بين يدى الطالب يأخذ منها حاجته التى يبتغيها

فالكاتب ، والخطيب ، والمدرس ، والفقيه ، والمحدث ، وكل من تعوزه صنعته ، أوتقواه وعبادته ، إلى شيء من هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يفزع إلى هذا المفتاح فيضع فى يده بسخاء كل ما يبتغى ويريد . وقد قدم له الامام الكبير محدث عصره السيد رشيد رحمه الله ، والمحدث الفاضل الشيخ أحمد شاكر بمقدمتين ، نقتطف منهما جملاً تنبئ القارئ الكريم عن عظيم الحاجة إلى هذا المفتاح إذ قال السيد رشيد رحمة الله عليه ورضوانه :

« ولو وجد بين يدى مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفر على أكثر من نصف عمرى الذى أنفقته فى المراجعة . ولكنه لم يكن ليغنيني عن هذا الكتاب (مفتاح كنوز السنة) فان ذاك إنما يهديك إلى مواضع الأحاديث القولية التى تعرف أوائلها ، وهذا يهديك إلى جميع السنن القولية والعملية ، وما فى معناها ، كالشمائل والتقريرات والمناقب والمغازى وغيرها ، فلو كان بيدى هو أو مثله من أول عهدى بالاشتغال بكتب السنة لوفر على ثلاثة أرباع عمرى الذى صرفته فيها »

وقال الأستاذ الشيخ احمد شاكر « وقد عني الصديق فؤاد افندى بالدقة فى الترجمة أتم عناية ، فانه لم يترجم معنى من المعانى حتى رجع إلى الأحاديث فى مصادرها التى أشار إليها المؤلف وعبر عنها بالعبارة الصحيحة التى تدل عليها الأحاديث . ولذلك مكث فى ترجمته أربع سنين ثم لم يضن على طبعه بالمال ، فاختار أرقى المطابع فى القاهرة وانتقى له أجود أنواع الورق ، فأبرز الكتاب كاملا ... »

« هذا الكتاب جعله مؤلفه فهرسا لثلاثة عشر كتابا من أمهات كتب الحديث . وهى : مسند الامام احمد بن حنبل . صحيح البخارى . صحيح مسلم . سنن الدارمى . سنن أبى داود سنن الترمذى . سنن النسائى . سنن ابن ماجه . وهذه الثمانية هى أصول السنة ومصادرها الصحيحة الموثوق بها . ويندر أن يكون حديث صحيح خارجا عنها . ثم موطأ الامام مالك . ومسند أبى داود الطيالسى ... ثم سيرة ابن هشام . ثم كتاب المغازى للامام محمد بن عمر الواقدى ... ثم أعظم كتاب جمع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتراجم الصحابة والتابعين فمن بعدهم وهو كتاب الطبقات الكبير لابن سعد . والكتاب الرابع عشر المسند المنسوب إلى زيد بن على بن الحسين ... وقد رتب الأستاذ فنسنك كتابه على المعانى والمسائل العلمية ، والأعلام التاريخية ،

وقسم كل معنى أو ترجمة إلى الموضوعات التفصيلية المتعلقة بذلك ، ثم رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم ، واجتهد فى جمع ما يتعلق بكل مسألة من الأحاديث والآثار الواردة فى هذه الكتب ..... ولعل نشر هذا الكتاب بلغتنا العربية الشريفة يكون سبباً فى اقبال المتعلمين من جميع الطبقات على الاشتغال بالسنة النبوية ، وعلى الاستفادة من كتب الحديث التى هى كنوز العلم والحكمة التى أعرض عنها أكثر الناس ، إما جهلا بفائدتها ، أو عجزاً عن المراجعة فيها عند الحاجة »

وقد وضع الأستاذ فؤاد عبد الباقى لهذا المفتاح فهارس أخرى تيسيراً للمنفعة به وبالمعجم المفهرس لألفاظ الأحاديث النبوى ، صدر منها فهرس البخارى ومسلم والترمذى . ولعلنا نتكلم عنها وعن المعجم المفهرس فى فرصة أخرى

محمد حامد الفقى

القصص المدرسية (١)

يصدرها الأساتذة

سعيد العريان — أمين دويدار — محمود زهران

المدرسون بالمدارس الأميرية

ماذا يقرأ الطفل فى وقت فراغه ؟

بل ماذا يقرأ الطفل فى مدرسته ؟

ولماذا ينقطع أكثر شبابنا الذين أتموا دراستهم ، عن المطالعة والدرس فلا يتذوقون لذة القراءة ، ولا يلتمسون متاع الروح ورياضة العقل بالاطلاع والنظر فى الكتب ؟

هذه أسئلة تعرض لكل ذى رأى فى هذا البلد ، فيذهب يلتمس الجواب ، ويعرض الرأى ، ويناقش الفكرة ، فلا يهتدى إلا إلى رأى واحد : هو أن الطفل العربى لا يجد ما يقرأه فيلذه ويفيده فى وقت معاً ؛ فما بين يديه من الكتب واحد من ثلاثة : كتاب مدرسى يراه همّ النهار والليل ، وكتاب فى مكتبة أبيه يعيا من دونه فكره ويقصر ادراكه ، وصحيفة بين هذين أو فى مذهب ثالث ، ليس من الحكمة أن تصل اليها يده . والطفل بين ذلك كله لا يجد ما يجذبه إلى القراءة أو يحببه الى الاطلاع فينشأ نشأته كما نرى أكثر شباب هذا الجيل

ومن هنا بدأ تفكير بعض أدباء العربية فى تلافى هذا النقص فاتجهوا بعنايتهم إلى محاولة إيجاد « أدب الطفل » ، ويعنون بأدب الطفل ، ذلك الأدب السهل الذى يلذ الطفل ويشوقه ، ويحمله — بالرغبة والميل الطبيعى — على المطالعة وحب الكتب ، منبثاً فى ثناياه ما يراد أن يزوَّد به الطفل من علم وفن ومعرفة وبيان ، فيتناوله مقبلا عليه بقلبه وعقله وطبيعته ؛ وكانت محاولات مجدية ، أضافت الى العربية فناً جديداً ، وأوجدت بينها وبين نفس المتعلم سبباً وثيقاً

على أن هذه « القصص المدرسية » التى نتكلم عنها اليوم — اتجاه جديد فى هذا الباب من الأدب ؛ فلم يقتصر مؤلفوها على الترجمة من أدب الغرب ، أو النقل من كتب الأدب القديم ، كما فعل من سبقهم إلى هذا الباب ؛ بل تراهم يحاولون أن ينشئوا « أدب الطفل » أصيلاً فى العربية ، مصوَّراً من هذا الجو الذى يعيش فيه طفل اليوم ؛ وبذلك أوجدوا الصلة بين الطفل ولغته ، وبينه وبين أهله ، وبينه وبين الجو الذى يعيش فيه ، فلا يعييه بعدئذ أن يتابع القصة بخياله ، كأنه بطل فيها ، مؤثر فى حوادثها ؛ وهذا — لعمرى — نهج سديد ، خليق بأن ينشىء من أطفالنا جيلاً جديداً ، له مُثُله العليا على مقداره ، وله رأيه فيما يحيط به

وقد استقبلنا هذه القصص لأول ظهورها منذ عام ، فرحين آملين ، مشفقين على مثل هذا المشروع أن يقف فى طريقه بعض ما يقف فى سبيل أكثر الجهود النافعة فى بلدنا فيحول دونها أن تبلغ التمام . ولكنا اليوم إذ تطالعنا القصة الخامسة من هذه القصص الدورية — نستبشر ويزايلنا الاشفاق على مصير هذا العمل النافع . على أن جهدا كهذا الجهد الذى يبذله مؤلفو القصص المدرسية صامتين — جدير بأن يلقى ما يستحق من عناية الآباء والمعلمين ليدلوا تلاميذهم عليه ، ويرشدوهم إلى سبيل الانتفاع به . لينجح المشروع ويؤتى ثمرته فى أولادهم وتلاميذهم

وما نحاول أن نصف هذه القصص بأكثر مما وصفها الأستاذ الرافعى فى رسالة كتبها إلى المؤلفين بخطه يقول فيها : « إنها رجولة عالية تساق إلى التلميذ فى أسلوب التلميذ ! » (م)

---

(١) صدر منها « مدرس اكسفورد » ، « الصياد التائه » ، « عروس البيغاء » ، « النهر الذهبى » ، « الزعيم الصغير »